جمال الغيطاني

الحصار من ثلاث جهات

دار المسيرة

منتصف ليل الغربة

اشارة تليفونية

من: مديرية الصناعة الى: مديرية الصحة

بناء على اشارتكم لنا بتاريخ اليوم، بخصوص وجود سرير خال بالاستراحة طرفكم، نرجو حجز مكان باسم السيد/يوسف عبد الرحمن... الموظف المستجد طرفنا..

مبلغ الاشارة

امضاء

* * *

تتراجع البيوت على مهل، الدكاكين الصغيرة والاعلانات والواح الزجاج، يصيح رجل مناديا على تاكسي بالنفر، تنساب أغنية من بيت قريب، يذيعونها دائما في هذا الوقت، وحدة الظهيرة، تزايد الحركة. الآن يعود الناس من أعمالهم في مدينته البعيدة، كان اذ يرى أباه يصيح: هيه.. بابا جه.. بابا جه، لا تذكره الأغنية بأيام راحت بل تثير في نفسه تراب الحزن الدفين، أيام حلوة مزهرة مشرقة. جرى فوق رمال الشاطىء، احتوى البحر

بعينيه وسامية بين ذراعيه، أطعمته بيدها لحم السمك المشوي الأبيض، مسحت عن شفتيه قطرات ماء البحر مالحة الطعم، الآن يعض شفته، وقع عجلات الحنطور رتيب، الهواء حوله بارد، قالوا له إن برد المدينة شديد خاصة اذا ما نزل الليل، قالت أمه: اذا شعرت ببرد ضع جريدة قديمة فوق صدرك. ربما تقف الآن في الشرفة، تعرف أن يوسف لن يظهر عند منحنى الشارع، أبوه لم يصل، ربما جاءت أخته الآن، كان يروح ويجيء بين الغرف، يقرص أخته.. يسألها.. هل تعرض لها أحد. يأكل بسرعة، يمد يده. يداعب ذقن أمه، تحكي له عما رأته عندما نزلت تشتري السمك، دارت.. بحثت حتى وجدت السمك الذي يحبه، الأسواق ما فيها الا الشبار الصغير، عند رجوعها قابلت الست أمينة، كلمتها عن محمد الذي جاء وقرأ فاتحة سعاد ابنتها، سعاد لم تتعلم، ولها ثلاث أخوات كلهن بنات.. أصلها ترضى بأول ابن حلال يجيء للبنت، يصغي يوسف. فجأة.. يسأل أمه: ألم تحضر بنت حلوة كالقمر وسألت عنه، فترفع أمه يديها وتطلب من الله تعالى أن يعجل بهذا اليوم الذي ترى فيه عروسة ابنها. تجاوزت العربة آخر بيوت البلدة، الخلاء يتسع، النخيل يتشابك، الحنطور يمضي متمهلا...

* * *

الأربعاء ٢٢ ديسمبر...

هل خاف الأطباء على أنفسهم من العدوى فآثروا العزلة. لكي

أقطع المسافة حتى المدينة لا بد أن أمشي نصف ساعة في طريق مترب خال تماما من البيوت والعشش، تماما ما توقعته لحظة رؤيتي المبنى، النوافذ مستطيلة وكبيرة جدا، مغلقة كأنها لا تفتح أبدا، أما الشرفة فقد أحاطت الطابق الثاني كله، محمولة على قوائم خشبية ترتكز على الأرض، لحظتها تذكرت بيوت مدينتي البعيدة ذات الواجهات الخشبية، آه من رائحة الغسيل المنشور في الهواء وملح البحر.. لو أغمض عيني وأفتحها وأجد الطرق والمتاجر النظيفة والنساء الجميلات، والبحر... لم يمر يوم الا ورأيته، في الليل أرهبه، أخاف لو مشيت فأجد نفسي فوق مياهه، أمشي بعيدا عن السور، ربما امتدت يد غليظة الأصابع، شدتني الى أعماقه، ابتعد عن وشيش الأمواج، العمق المحسوس غير المرئي، بدا المبنى خربا، عند عبوري حديقة الاستراحة الجرباء تيقنت أن هناك من يرقبني، اقشعر ظهري، طلعت السلم الذي يدور حول المبنى، الدرجات الخشبية مغطاة بأوراق شجر جافة، الصمت كالجبل، كأن العالم خرب، مدينتي البكر واسعة العينين لم توجد أبدا مع اني فارقتها منذ ساعات، فجأة ظهر عبد المقصود كنت متعباً، عيناي تكادان ان تنغلقا حزناً وتعباً، انه طويل الجسم والعنق، جامد الوجه، ينظر دائماً في خط مستقيم، لم يرحب عبد المقصود بي، نفس الجمود الذي قابلني به الموظفون، لم أسمع من يقول حمدا لله على السلامة. أنا أيضاً بادلتهم نظرات الكره، خاصة الشاب المتأنق، والعجوز صاحب الصوت المليء بالرغاوي. تبعت عم عبد المقصود وصداع

أليم في قلبي، لم أصدق أنني بعيد عن سامية، عن البحر وقد أسندت الحقيبة أمامي... وأطرقت مدة برأسي، مغمضاً عيني.

« يوسف »

* * *

١ - الدكتور جلال محمود مرسي من ١٩٦٨/٧/١٢ حتى ١٩٦٨/٧/١٣.

٢ - محمد فوزي عبد السلام من ١٩٦٨/٨/٢٠ حتى ١٩٦٨/٨/٢١.

٣ - يوسف عبد الرحمن من ١٩٦٨/٨/١١ حتى.........

* * *

- يعني مفيش حد في الاستراحة غيري يا عم عبد المقصود؟
- ايوه...
- لو نزلت البلد دلوقتي ورجعت متأخر مين يفتح لي؟
- أنا... دايما تلاقيني تحت... ما بنزلش البلد غير قليل خالص.
- لكن السكة وحشة خالص يا عم عبد المقصود...
- شوف يا يوسف أفندي... الحتة دي طول عمرها خلا... ما حد هوب ناحيتها... والطريق خطر... وأولاد الحرام كتير...
- يعني الرجوع بالليل مش مأمون؟
- دا اذا جالك قلب وقدرت يا يوسف أفندي..

الاربعاء ٢٢ ديسمبر...

لا أعرف ما الذي يجري لي لو لم أحضر كراستي والقلم. في مدينتي انقطع عن الكتابة بالشهر واليوم ألجأ اليها مرتين، في العصر كسرت عادتي ولم أنم، البرد يشتد فلا أستطيع القراءة الا تحت البطانية، ثم لو نزلت البلدة، مع من أقضي ليلتي؟ المقاهي قليلة وصغيرة. في بلدتي لو جلست على مقهى حي غير شارعي لنظروا الي بريبة، فكيف هنا والناس كلهم يعرفون بعضهم. قال أبي ان أهالي البلدة كالحريم ينتهون من أعمالهم ويدخلون بيوتهم فلا يخرجون منها الا في صباح اليوم التالي... قال أبي، الله يبعدك عن أولاد الحرام، قلت وعيناي تدمعان والجرس رنته الأولى... سأقضي وقتي وأذاكر انجليزي... وأقرأ الكتب، ونصحني بأنني لو استطعت أن أجد شابا في مثل سني... غريبا، ونستأجر غرفة أو شقة، وبت أعلم لماذا يقول أبي هذا، حتى لا يضحك علي أحد ويوقعني في بنت قد تبعدني عنه، وتقطع ما قد أرسله الى العائلة، وعلى العموم نساء البلدة كلهن لسن جميلات كفتيات مدينتي، آه من الزحام والشمس الحلوة صباح الجمعة عند محطة الترام الرئيسية والهواء يهب مشبعا بزرقة البحر؛ عند المحطة رأيت سامية أول مرة، بلوزة بيضاء، جونلة برتقالية، جورباً أسود، حذاء أبيض كبيراً، عيناها بلون.. أي لون.. عسل النحل.. رأيتها كمطر خفيف ينزل على مهل في يوم حار، أوراق زهر صغيرة تكسو الرصيف في أيام مارس الأخيرة... نجا شاحبا بعيدا له عينان واسعتان، وأنف دقيق، وشفتان كالفراولة، قلت لن

أجد مثلها.. لو أني خلقت بنتا لتمنيت أن أكون هكذا، لفترة حاولت أن أقيم علاقات مع فتيات يسكن في شارعنا، لكني ترددت، وارتعشت قبل حديثي اليهن، ونصحني زملائي بالجرأة، وها هي، هذا الشيء الخفي الذي لا أراه ولا أدركه، لو ضاعت، لقضيت عمري بعيدا عن جنس النساء، حاذيتها وقلت لها أن قلبي ارتجف عندما رآها، وانني أشعر بصداقتها لي من زمن، توقفت، نظرت الي وابتسامة على وجهها حيرتني، قالت: آه وماذا بعد؟ اصرار عجيب انتابني. سألتها عن اسمها وفي أي سنة هي. قالت أولى ثانوي. ثم قالت اني ظريف وطيب، وفجأة تبدلت وطالبتني بالابتعاد، قلت لها ان اسمي يوسف.. وانني حاصل على دبلوم تجارة متوسطة، وسأعمل قريبا، وانني أنوي دخول امتحان الثانوية العامة فلا بد من الالتحاق بالجامعة، وقلت يمكننا مذاكرة الانجليزي معا، ضحكت وكررت اني طيب جدا، وسألتها أهذا مدح أم ذم؟؟ فطلبت مني برقة ألا أتقدم معها أكثر من ذلك، بيت خالتها يقترب، قلت اني سأنتظرها وأرجع معها حتى لو قضيت الليل هناك، ابتسمت وقالت لا داعي... تابعتها حتى اختفت، وكررت في ذهني عنوان المدرسة، فجأة صحت بأعلى صوتي، انطلقت أجري، أجرع هواء البحر، ألتهم اسفلت الطريق اللين.. وددت لو أوقف كل من يقابلني لأقول له كل ما جرى، ضحكت، داعبت أمي كثيرا حتى ظنت اني شارب حاجة، وقلت لها انك أعظم أم في العالم. عندما قابلتها ليلة سفري دمعت عيناها. قلت لها ربما غبت عنك شهورا،

قالت أسافر معك. ضغطت يدها، الكازينو خال الا منا، المصابيح الملونة تضيء في انكسار، وبقايا الأمطار في منخفض من أرض الحديقة وغناء من بعيد، قبلتها، تخللت أصابعي شعرها الناعم كالليل.. أقسمت لي بتربة أمها أنها سترسل لي كل ثلاثة أيام خطاباً، ستقول كل شيء جرى لها، وللمدينة، وفي المدرسة، اذا نزل المطر، اذا هاج البحر، لو دخلت السينما مع أبيها وزوجته، فستحكي لي بالضبط ما رأته من أفلام، وعندما خرجنا كان للهواء طعم القرنفل، المصابيح عالية، ضوؤها مخنوق كصوتها لحظة الوداع، لو أنها معي لانقلب كل شيء، عدت أصغي الى أزيز الصمت، تطلعت الى السقف المرتفع جدا، عندما سألت عبد المقصود عن هذه المدفأة الرخامية.. قال ان الانجليز كانوا يتدفأون بنارها، سألته هل حضر أيام الانجليز هنا؟ قال انهم هم الذين بنوا الاستراحة لمهندس الري، وكنت واحدا من الذين وضعوا حجارة المبنى وأخشابه فوق أكتافهم.. ثم عينت فيه، صمت فجأة وبدا غير راغب في الكلام، أسند الدورق وخرج، لا أعرف ما يفعله في هذه اللحظة، كأنه لم يتم إنما يطل عليّ من ثقب الباب، ارتعش دمي، نفضت ما يتدافع الى ذهني، تأملت الكتب محاولا اختيار رواية أقتل بها ما تبقى من وقت...

«**يوسف**»

* * *

تمسك يده بحافة النافذة، يمرق شريط الضوء اللامع يكشف

العربات التي بدت مستطيلا واحدا، مرور العجل فوق فواصل القضبان، قطار الثانية عشرة، قادم من الشلال الى القاهرة، مفتخر لا يقف أبدا، يوسف يتابع بعقله الرجال النائمين على المقاعد الزرقاء في العربات، آخرون يشربون الشاي، يأكلون الجاتوه في عربة الأكل، يبدو عليهم ملل، الرحلة طويلة، لو يركبه يوسف، بعد ساعات يقف في القاهرة، ثم قطار آخر ينقله الى البحر، لكم يبدو بعيدا وبطيئا هذا الوقت الذي سيمضي عليه هنا حتى يحصل على إجازة ويسافر. يسيل الضوء ناعماً في الخارج، أضواء المدينة البعيدة خافتة تزيدها بعدا، فجأة ينتبه الى وجود رجال فوق القنطرة الحجرية، هل عبد المقصود بينهم؟ لا يرى الملامح، أياديهم طويلة تلمس ماء الترعة، لا يجرؤ على اغماض عينيه، لو يأتي بأقل حركة ربما تنبهوا اليه، تنبعث من بعيد أصوات مجهولة لم يميز منها الا ما يشبه اطلاق نار، هل له صلة بعمل الرجال، لا يعرف من أي جهة يجيئون؟ يظهرون فجأة، ربما يخرجون من الاستراحة، فجأة... يضيع كل ما يراه، يتبخر الضوء الناعم، تضيع معالم الحجرة، تحته فراغ وفوقه، هل أصيب بالعمى المفاجىء؟ هل يحيط به غرباء؟ أقزام؟ عمالقة؟ لن يطلع عليهم النهار.. هالك، لن يعيش اللحظة التي تلي هذه، لن يدري أحد، لن يحميه عبد المقصود، يتحرك مشلولا ناحية السرير، تتقلص أصابعه ممسكة بالبطانية، ينتزعها بعنف، ويلفها حول جسمه، يصطدم اصبع قدمه بالمقعد المدبب الحواف، لو قطعوا لسانه اللحظة لما شعر بألم، يسند ظهره الى الباب،

وحيد تماما، نواة ملقاة في فضاء خلا حتى من النجوم والأرض وذرات الرمل وسامية وحراشيف النخيل...

* * *

– صباح النور.. لا والله ما سمعتش.. أصل النور بيطفي بعد الساعة اتناشر.. وابور البلد بيقف.

* * *

الخميس ١٢/٢٣

طلبني المدير، سألني عن مجموعي في الدبلوم، وسرعتي في الآلة الكاتبة... وأعطاني ثلاثة خطابات، طلب مني أن أنسخها، شعره يلمع وأسنانه بيضاء، يتكلم برقة، يتناول بين لحظة وأخرى قلمه الحبر الطويل المغموس في محبرة نحاسية ليؤشر به كلمة واحدة فقط، كدت أقول له أن الاستراحة مزعجة وأنني لن أرجع الليلة اليها، غير أني ترددت، ما هي مبرراتي؟ خرجت من عنده. وفوجئت بزملائي ينتظرون خروجي. سألوني عما قاله سيادته؟ قلت لا شيء. سكتوا، نظروا الي بعداء، جاء رئيسي الشاب، أعطاني عشر استمارات صرف لأراجعها، نظر الى الدوسيهات الكثيرة أمامي، قال لا بأس إذا كان العمل كثر عليك، لكن هذا لا بد منه حتى تتمرن.. قلت أبداً، فجأة سألني عما قاله المدير، قلت لا شيء، وفعلاً لم أر في كلامه ما يستحق أن أكرره، غير أنه اعتدل واقفاً، نظر الي بعداء لم يخفه.. كنت مجهداً وعيناي مليئتين بالصابون

الحارق، وعندي ميل الى القيء، تحز قلبي صورة سامية.. بعد فترة جاء وأشار الى حقيبتي الصغيرة، فقلت له عما بها، كراستي ورواية لم أتمها، وثلاثة ظروف خطابات، ومحفظة نقودي لأني لا أحمل نقودي في جيبي، قال على مسمع من الآخرين، انه لا مجال لقراءة الروايات هنا، وأن العمل جاد وأنه هو نفسه لا يجب ان يحضر أحد موظفيه روايات أثناء تأدية العمل الرسمي، عند الساعة الثانية وقّعت أمام اسمي، وفجأة جاء الساعي العجوز وطلب أن أكلم المدير، تلفت حولي غير أني لم أهتم بنظراتهم ودخلت الى سيادته، ابتسم ولاحظت بدهشة أنه قصير القامة، بعكس ما يبدو أثناء جلوسه، قال لعل العمل لا يكون ثقيلا على نفسي.. ارتحت، فارقتني الرغبة في النوم.. كأنها لحظة رؤيتي سامية مقبلة من ناحية البحر، قلت أبداً ان العمل لا يرهقني، قلت في نفسي بعد دقيقة أكلمه عن الاستراحة، كدت أقول له أشعر بأنني أتكلم أول مرة مع انسان منذ وصولي، قال: هل تعرف أحد الموظفين هنا؟ قلت أبداً.. سكت لحظة وقال.. أنا هنا مثلك وربما أنت أعزب لا يهمك لكن أنا عندي أسرة مقيمة هنا.. وللأسف هؤلاء الموظفون لا يكفون عن الحديث عني، سكت، ثم تابع، طبعا هذا شيء مزعج، ولكن لو عرف ما يقولونه بالضبط سيصبح الأمر غير ذي أهمية، كل ما علي أن أسمع ما يقولونه فقط وأنقله بالحرف الواحد لا أزيد ولا أنقص، وبهذه المناسبة.. هل تكلموا في موضوع يخصني اليوم؟. قلت لا أذكر، لوح بيده وبدا وجهه غير مهتم، وطلب مني أن أنتبه من

الآن، خرجت والرغبة في النوم تعاودني، ذهبت الى المحطة.. جلست فوق رصيف المسافرين، ثلاث بنات تلميذات وقفن بعيدا عني.. ينتظرن أوتوبيس الديزل الصغير الذي يصل المدينة بالقرى القريبة، لم أنظر اليهن، أين هن من سامية؟ بل أين البحر، الطرق اللامعة المتعطشة الى ماء المطر، الأشرعة البعيدة كجناحي طائر محدودب، أين البهجة في وعائي عسل النحل المصفى؟ تضحك، تتقدمني الى الترام، ننزل آخر الخط.. نمشي بجوار البحر الذي يتنفس بقوة، فجأة نجري، نجلس في نهاية اللسان الحجري، أسند رأسي الى فخذها، أحيطها بذراعي، ربما وأنا أحلم، لكنني أقطف ثمار الفراولة والكمثرى وأشرب عصير المشمش، إذ تهدأ تأوهاتها، تتحدث عن آمال نرجو أن تتحقق، وسفر لا بد من الشروع فيه، ليس من المعقول أن نقضي حياتنا في هذه المدينة، يا سامية، بعد زواجنا سنرحل الى السودان، الى أريتريا، الى بيروت، الى أوروبا، نطوف المدن البعيدة معاً، نجلس على المقاهي تحت سفوح الجبال، تخرج قلما وورقة، نكتب تكاليف الرحلة الأولى، تثير بعض الاعتراضات غير أننا نتغلب عليها، ها.. ربما تفكر سامية فيما قلناه الآن؟ هل يعرف الموظفون أي مشاريع صغيرة رسمناها معا، هل يدري المدير بأحلامنا.. كأن دنياهم تتوقف على معرفة ما قالوه أو ما قاله؟ يثور بي الخاطر أن أركب أول قطار الى مدينتي، الى سامية، وأسند رأسي الى صدرها وأبكي، أبكي بلا دموع. قمت حاملا حقيبتي الصغيرة، الرصيف خلا من الركاب، والفتيات رحلن

الى قراهن البعيدة، وسامية خرجت من المدرسة الآن...

« يوسف »

– أنت فاكر كلمتك في ايه يا عم عبد المقصود. ايه رأيك تبات معايه.. أديك شلن كل ليلة.. السريرين واحد ليه.. وواحد ليك. كل ليلة شلن.. آه والنبي، أحسن الأوده واسعة والبيت فاضي والحتة كده شكلها يخوف.

* * *

لو معه راديو لسمع الأصوات المنبعثة من العالم، هنا بيروت، هنا لندن، اذاعة الجمهورية العراقية من بغداد، محطة الاذاعة العربية من موسكو، عدن.. الجزائر تختلط الأصوات، تضيع النداءات، حنين حاد يتحرك في دمه، لو يسمع أغنية من قرب، أصوات الرجال ستبدأ بعد قليل فوق القنطرة.. منذ ساعتين دخل عبد المقصود، تلفت حوله، عيناه فحصتا كل ما في الحجرة. كأنه يدخلها أول مرة، ثيابه المعلقة فوق المشجب، الحقيبة التي لا زالت مفتوحة.. الحذاء، الجورب، الفوطة الحمراء الملونة بخطوط سوداء، المشط، سأله عما يفعله بالكتب، سكت.. ثم سأله عن سنه، فقال يوسف تسعة عشر عاماً.. قال إنه صغير، تمدد ملتحفاً بالبطانية، أنهى الحديث فجأة، لا يدري يوسف ما الذي يفعله الآن. يطفىء النور أم يقرأ عليه، عبد المقصود لم يطلب اطفاءه، لا يعرف هل رجعوا الى القنطرة، لكن ربما يعرفهم عبد المقصود.. يظن أن يوسف

يرصد حركاتهم، فيناله ضرر، قرض يوسف شفتيه، برغم أن مظهره ينم عن نوم عميق، غير أن احساسا خفياً يقول ليوسف: عبد المقصود لم ينم، لو نظر الى عينيه من الناحية الأخرى، لرآهما مفتوحتين.. خفت الضوء، بعد قليل ينقطع. منذ لحظات خرجت حفلات السينما الأخيرة. أربع مرات دخلها مع سامية.. تقول لزوجة أبيها إنها ستذاكر مع صاحبتها، تاهت نظراته على السقف وهو لا يعرف ما الذي تفعله سامية الآن..

* * *

السبت ١٢/٢٥

أرعبني الليلة عبد المقصود، ظل ساعة كاملة ينظر الي. متجمدا كالحجر.. قطع ما كنت أود أن أسأله عليه.. حياته، نزلاء الاستراحة، وحدته.. وفي الهواء تصاعدت رائحة عرق لم أشمها فيه من قبل. بالرغم أنه تمدد من ساعة موليا وجهه الى الحائط فهو يرقبني الآن، أذناه تسمعان حركاتي. تحصيان دقات قلبي، أنا متعب، خطابات سامية لم تصلني بعد، كل يوم أسأل مدير البوستة قبلي البلدة، أنا حزين وأكاد أبكي ولا أعرف لماذا يبدو عبد المقصود هكذا...

« يوسف »

الساعة الآن الثانية صباحا تقريبا.. أقصى عمق لظلام الليل، يوسف لم ينم، حتى قطار الثانية عشرة لم يمر، يصر السرير فجأة،

يكف الهواء عن دخول رئتيه، حفيف جلباب، عبد المقصود لم يعد متمدداً فوق السرير.. ما الذي ينويه؟ هل صمته، اخفاء حركاته يخفي أمراً، ينزل يشارك الرجال فوق القنطرة، لا يتجه الى الباب، يقترب منه، لحظات الكابوس.. صراخه المكتوم من الأنف وشلل الجسم وصياح أبيه.. اصحى.. اصحى، ولو، فمن يهرع اليه هنا.. من يهز جسمه حتى يفيق؟ من.. من. يصر السرير، ليس كابوساً، عرق عبد المقصود يملأ أنفه، عبد المقصود يلامس جسمه، يده الغليظة الخشنة تسد فمه، أنفاسه ساخنة لزجة تقشعر ما وراء أذنيه، ثقل جسمه، اليد الأخرى تمتد الى بنطلون بيجامته، الحجرة تغرق في زيت لزج، لو يصرخ.. لكن من يجيب لو يزعق..

* * *

«كنت تقول أنك لو نظرت الى وجهي لشعرت بحزن لا يحز قلبك إنما يشحن نفسك بما لا تدريه أنت، وسألتك كيف تحزن إذ تنظر في وجهي؟ قلت إنك حائر، وهنا في الغروب، كل ليلة أذهب الى صاحبتي سعاد أذاكر معها، وأرى وجهك أكثر من مرة في الطريق.. عند منحنيات الشوارع، أمام محلات عصير الفواكه، أتذكر مشروعاتنا للسفر، وأتخيل نفسي أنني سافرت وحدي، الى بلدة صغيرة عند حدود العالم، شوارعها مبلطة وكنيستها قديمة، أجلس في مطعم له شرفة خشبية، وفجأة أراك تعبر الطريق، ولا أكون متوقعة رؤيتك، فأقفز من مكاني، أناديك، تدهش أنت إذ من يناديك بالعربية في هذا المكان؟ تفتح ذراعيك، تدور في

الهواء، أسألك ما الذي جاء بك، وتسألني ما الذي جاء بي؟ ولا تسعنا الفرحة فتتمنى لو تحولنا الى طائرين صغيرين وطرنا الى أعلى الجبال المغطاة بالثلوج.. آه.. هل تذكر عندما كنت أتقدمك في نزول سلم السينما الطويل الحديدي المفروش بسجاد أحمر، كنت تقول لي.. أنت الآن تنزلين سلم البوينج، وإذ نخرج الى الشارع، نقول إننا اجتزنا الجمارك فلا شيء معنا نحاسب عليه، ثم تشرح كل ما تراه..

يوسف...

في اليوم الواحد أفكر فيك يومين. هل تذكر الجمبري، هذا الطريق الطويل المفروش بالظلال، ساعات يخيل لي أن المدينة خراب بدونك، لم أعرف قسوة الفراق إلا لحظة موت أمي، ورحيلك أنت، سأكتب لك كل ثلاثة أيام، ربما كل يومين، وربما كل يوم، وإذا ما كتبت لي، فلا تكتب أقل من أربع صفحات فولسكاب، لا بد أن أعرف كل كبيرة وصغيرة عنك. أكلك. نومك. شربك، أصحابك، وقتك، كل شيء حتى أهدأ، حتى أستريح. وأخبرني متى ستحضر.

المخلصة لك

سامية

* * *

الأحد ١٢/٢٦

أكلت في المطعم الوحيد، سألت الرجل عن مسكن خال حتى لو كان جحراً.. فقال إن مأمور المركز كان أولى، وإنه لا يستطيع احضار عائلته لأنه لا يجد مسكناً، ونصحني ألا أتعب نفسي فأهالي البلد لا يقبلون عزابا، في العصر خنقتني الغيوم، همت على وجهي، لا أجرؤ على اخراج خطاب سامية، منذ جئت أنتظره، عندما قرأت خطها الرقيق خجلت من سطورها، وبكيت.. وحقدت على لون الضوء المنسال في الفراغ، والنوافذ الكبيرة المغلقة، والرجال الذين يحملون أكياس الفاكهة الى عيالهم، أغرقني النهر حزناً كالنحاس الأزرق، وإذ رأيت بنات المدرسة الثانوية وثيابهن الرمادية تذكرت سامية، وارتعشت، كأنها تنظر الى مكان لا أراه، بعيدة عني، لكنها تلمحني من مكان خفي، ووجهها في الفراغ، أينما رحت ينظر إلي برثاء، كدت أرمي نفسي في النهر، كدت أضرب المدير القصير عندما طلب مني في حدة أن أنقل اليه ما يقال حرفياً، وان أعتبر هذا أمراً، بدا لي أنه يعرف تماما ما جرى وأنه على صلة خفية بعبد المقصود، أما الموظفون فنظروا إلي بسخرية من وراء الدوسيهات، طلب لي أحدهم شايا، ولم أدر سبب الود المفاجيء، كدت أرفضه، وفي كل رشفة شعرت بنظراته.. ها أنا أسقيك شايا.. أنا لست أقل شأنا من عبد المقصود طبعاً. آخر النهار سألت عم محمد عن مكان خال، فقال هذا مستحيل، حتى الباعة، خادم المقهى، هزوا رؤوسهم، كلهم يعرفون، حتى الرجال المحلقون

الى المحطة ليركبوا القطار، كلهم يعرفون، مهدوا لما جرى، لو أعود الآن الى مدينتي، يعرفون فوراً قلت فلأنم الليل على رصيف المحطة، أتأمل القطارات التي تجيء ولا تقف.. شربت شايا، امتدت مخالب طيور صغيرة تنهش كبدي، نزول السواد يمنعني من العودة الى الاستراحة، مقدمات المغيب كالطاعون، تطردني البيوت الى الخلاء المؤدي الى غابة النخيل.

★ ★ ★

أنا عارف كويس أنك دورت على لوكاندة طول اليوم.. وكمان فكرت أنك تسافر، ولما يئست فكرت انك تنام على رصيف المحطة، لكن البوليس لازم يمسكك.. أنا عارف أنك مش حتلاقي.. حتى لو لقيت، فمش ممكن تسيب الاستراحة برضه.. أنت هنا.. عندي أنا مش مخليك تحتاج حاجة أبداً. بس تقول لي على كل اللي أنت بتعمله.. تقرأ الجوابات اللي بتبعتها لأبوك وأمك.. وأصحابك.. اذا دخلت فيلم تحكيه لي. أنا من سنين ما دخلتش سينما. وبعدين الكتب الكثيرة اللي أنت جايبها معاك دي.. فيها ايه.. أنا يا يوسف من أربعين سنة هنا، عايش على أمل أنه واحد زيك بيجي.. يمكن اليوم اللي أنت اتولدت فيه أنا كنت باتمنى الأمنية دي.. أنا وانت من هنا ورايح حتة واحدة.. الاستراحة كلها تحت أمرك حتى لو انتهت مدتك الرسمية.. حتفضل معايا، أنا هنا الكل في الكل.. ياما قضينا سنين ما دخل علي حد غير الصراف بيجي يسلم لي الماهية.. شوف.. حتى المديرية ما أعرف طريقها فين.. ها

اللي يعرفوا طريقي..

* * *

« ..أقول كل شيء ولا أقوله، الآن لم يبق لي إلا أنت، خطابي إليك يا حبيبتي هو الشيء الوحيد الذي أكتبه على رصيف المحطة، ومن يدريني ربما فتحوه وأخذوه ليعرفوا ما قلته لك، أما خطابات أمي وأبي وأصحابي فأنا مطالب بتلاوتها أمام شيء لن أقول لك ما هو، إنما.. إنه قوة لا بد أنا ملاقي حتفي على يديها، الناس هنا يا سامية غير الناس والعيون غير العيون، الحياة غير الحياة، كدت أبكي عندما أدركت في لحظة بعينها أنني لم أفكر فيك يوما كاملا، ملامحك بدت لي باهتة، أنا لا أكذب عليك، بل أصارحك تماماً. كدت أجري لاطماً وجهي، صرعني الحنين اليك، حتى لو أرسلت صورتك الي فلن أستطيع الاحتفاظ بها ولا تعليقها في مكان ظاهر، هذا الشيء لو رأى رسمك. أخاف عليك منه، ربما تعقبك، ربما ذهب اليك في مدينتنا.. ربما قضى عليك كما يقضي علي..

* * *

– يوسف.. هات فلوس عشان الغدا.. اسمع. هات اللي معاك كله.. انت الفلوس حتعمل بها ايه، ما تخليش معاك غير المصروف وده خده مني كل يوم...

* * *

الاثنين ١٧ يناير

منذ مدة لم تصلني خطابات من سامية، خبر هادي، الآن أخاف عليها.. حتى لو عدت الى المدينة، حتى لو نقلت، حتى لو رجعت ورأيت البحر كل يوم، هل يعود ما كان بيننا.. هل تجري بنفس الحيوية، نضحك نأمل، نتبادل القبلات...

* * *

الأربعاء ١٩ يناير

صباح اليوم طلبت المصروف من عبد المقصود، أخرج محفظته الكبيرة.. قال إن الدنيا برد، وقال إنني صرخت مرتين أثناء نومي وأيقظني، كان يقف على بعد متر مني، عيناه ثبت السواد فيهما، في الخارج علا ضجيج قطار، تقدم مني وأمسك عنقي.. يده دافئة، أنفاسه مشبعة برائحة الدخان لم أتحرك. قيدت مكاني بآلاف القيود أحاطني بذراعه، قال إنه لم يكف طول الليل عن الحلم بحسنية التي تمنى زواجها من عشرين سنة، ولم يقبل أهلها، قال إنه لن يدعني أذهب الى المصلحة، سحبني الى الحجرة مرة ثانية، وكانت الشمس ضعيفة عاجزة.. وكان يرتجف وريقه يسيل، لا يعي.. ما الذي يقولونه إذا لم أذهب.. وهمس إنه اليوم سيطبخ حماماً محشوا بالفريك، وعلا ضجيج قطار..

* * *

يروح المدير في الحجرة ويجيء، يداه معقودتان وراء ظهره،

يثني شفته السفلى، يعضها، ينفخ الهواء ساخناً من فمه، يستدير الى يوسف كأنه يود لو يسأل.. هل هذا صحيح، محروس أفندي قال عنه هذا، كأنه لا يصدق.. لكنه يثق بكل ما يقوله يوسف الآن، بعد عدة أيام من نقله كل كبيرة وصغيرة الى سيادته شد على يده، تأكد له صحة ما يقوله يوسف، كيف.. يوسف لم يعرف، ربما يتولى أحدهم نقل الأخبار اليه ثم يقارن ما يصل اليه، يدور المدير فجأة، يقسم أن ينقل محروس أفندي الى قرى الضفة الشرقية من النهر، يخرج يوسف، يطلب قهوة، لا يبالي نظراتهم، يطل على الميدان الصغير من النافذة المجاورة له، حقا.. أي جرأة في تبليغ النبأ الى سيادته، لكن هذا ما سمعه فعلا من محروس أفندي، البيك المدير لا يملأ عين امرأته، لكن هل رآها واحد منكم.. هل رأى الجوع المطل من عينيها.

« .. حتى أنني وأرجو أن تعذرني ذهبت بالخطاب الى صاحبتي سعاد، فهي تعرف كل شيء بيننا لكنها لم تفهم. لم تعرف، قالت ربما حبيبك في ورطة، لكن الخطاب به ما هو أشنع من ذلك، ماذا جرى يا حبيبي، هل يهددك شخص ما؟ هل اختطفتك عصابة، هل آذاك المدير، ماذا جرى، أين خطط مستقبلنا، أين ما تواعدنا عليه.. ».

* * *

في الصباح، أعطاه المصروف وهو متمدد كالقتيل، فمنذ أربع ليال يرقد من الغروب حتى خروج يوسف لا يتحرك، آخر الليالي بدا متوحشا فاقد الوعي، آلمه حتى صرخ. بالأمس كاد يوقظه ليبادله

الحديث، فالوحشة شديدة، لم يعد يقتل الوقت في القراءة، كوَّم عبد المقصود كل الكتب في الحجرة الأخرى. كما يقول تشغل يوسف عنه، أطل يوسف من النافذة غير أنه لم يجد الرجال الذين يجيئون الى القنطرة، ها هو يعبر الطريق الخالي الى المقهى، يقول الخادم ان البلدة لم تر برداً كهذا، منذ لحظات توسط الميدان الكبير، تعب فجأة، البيوت حوله، صامتةٌ، كالحة.. كأن الحجارة لها عيون وآذان، إنه وحيد حتى النخاع والنافوخ، لا وقع أقدام يسمع في المدينة إلا له، جرى في الميدان، الأهالي ينظرون من وراء شيش النوافذ المائل في اتجاه الطريق.. كاد يصرخ، مطالباً أي أحد، بشر.. جن، خفي، ظاهر، أن ينتزعه من هذه الشوارع، تلك البيوت، المقهى حوله خال، كل ما جرى يبدو له وكأنه يجري أول مرة، خطاب سامية الحزين مدفون الآن في درج مكتبه الشيء الوحيد الذي أخفاه، من يدريه، ربما يعرف عبد المقصود كل شيء فمنذ ليال سأله بدأب من علاقاته مع النساء، يوسف يتساءل بمرارة، لماذا يخفي عنه الخطاب؟ لو تجيىء سامية الآن، سامية، لا آمال تبنى، لا حديث خافت مهموس يدغدغ ما وراء الأذن، لا قبلات، لن يطبق البحر على جسميها كالخيمة إذ يغوصان فيه حتى العنق، لن يقفا أمام فتارين الأثاث، هذا الركن يصلح في الانتريه.. يوسف.. الصالون لا بد أن يكون مودرن، كأنه يدرك ضياعها أول مرة.. الآن سامية غريبة، أمه، أبوه، كل أيامه البعيدة في مدينته المغسولة بماء البحر، عض راحة يده.. يخاف أن يرى سامية فجأة،

ستعرف كل شيء ، تهرب ، تجري ، فربما أخذها من يدها وذهب بها إليه.. فعلا.. ضاع كل شيء .

يوسف يقوم واقفاً ، الأبر المدببة تنفذ الى كليتيه ، على الناصية ، دكان لبيع أدوات الحلاقة ، زجاجات العطر ، الأمواس أنواع ، المقابض حمراء ، سوداء ، الزجاج متسخ ، أصابع قدميه تتوتر داخل حذائه ، تتشابك يداه ، ربما رآها عبد المقصود ، يسأله.. لماذا يحملها ، يعرف بسرعة ، ربما يرقبه الآن ، ربما صاحب المحل يعرفه ، يضربه عبد المقصود... يمزقه ، يرميه في الترعة ، لن يدري أحد ، الحيرة تشطره ، يزداد الضوء قتامة.. والبرد ينفذ الى رئتيه ، غمامة كبيرة تزحف فوق البيوت ، يرفع عينيه تحتوي وجهاً مشوه الملامح ، جاحظ العينين ، كاد يعرف صاحبه لولا أن الريح أزاحتها بسرعة ، يخرج صاحب المحل فجأة.. يقول وعيناه محلقتان الى السماء.. المطر لا ينزل هنا أبداً . »

١٩٦٩

* * *

الحصار من ثلاث جهات

نداء :

الى سائر جنود الأعداء .

قواتي تطبق عليكم من ثلاث جهات .

راياتي تخفق فوق مواقعكم .

قادتكم أسرى .

استسلموا .. استسلموا ..

نداء الى ......

* * *

السيد أندريه مالرو...

بقلق بالغ ، تلقيت نبأ اصابتكم بوعكة صحية ، وانني لأتجه...... »

* * *

الى مدير المصلحة العام...

الى مدير المستخدمين...

إقدامكم على خصم أربعة وثلاثين قرشاً من راتبي عن شهر مارس ، خطوة عدائية أدرسها بعناية ، وانني إذ أعرب عن قلقي البالغ بسبب...... »

* * *

زعيم الصين، ماوتسي تونج...
أرق أمنياتي، لبلوغكم...... »

★ ★ ★

الشيخ عاشور المأذون...
في هذه اللحظات الحرجة من حياتي، أطلب الكف فوراً، عن تكليف عبده البواب بالتجسس عليّ، وابلاغ...... »

★ ★ ★

مستر ادوارد هيث...
المعذبون في روديسيا الجنوبية يقضون مضجعي، صرخاتهم تمنع النوم عني. أطالبكم بالتدخل...... »

★ ★ ★

في آخر الأدراج يستقر ملف أنيق أخضر، وآخر أحمر، خصص الأول للبرقيات المرسلة. كتب فوق الثاني بخط أنيق « سري للغاية » يضم نصوص الأوامر الصادرة الى قواته، مواقعها، تحركاتها أثناء معاركه المقبلة، الخطط البديلة لصد حلمي زميله في المصلحة، ما يقوم به من اعداد لاحباط هجماته، يضم أيضاً قراراته، هذا الملف لا يفتح إلا بالضغط على قفل صغير، بطريقة معينة. أرهق نفسه كثيرا حتى اشتراه، توقف طويلا أمام فترينات المكتبات الافرنجية في وسط المدينة. بطاقات المعايدة، أقلام حبر في علب مبطنة بحرير، الورق الملون، قال البائع الأجنبي الملامح:

عندي نوع مستورد من فرنسا...

قبل طلوعه السلم القصير، التفت محذراً.

- نوع جيد جداً، لا مثيل له في بقية المكتبات...

على مهل يهز رأسه. يداه في جيبي قميصه، وقت طويل استغرقه حتى قرر اتخاذ هذا الوضع لمواجهة الناس. توقف كثيرا أمام المرآة الصغيرة المربعة في حجرته، راقب نفسه أثناء مشيه في شوارع المدينـة، في مرايا محلات الأثاث، انعكاس صورته في زجاج الفترينـات، المرايا الصغيرة المعلقة بعربات الأتوبيس، تعديلات طفيفة يدخلها عند الادلاء بحديث تليفزيوني أو صحفي. دائماً يختار الصحفيين الناشئين الذين لم يُعرفوا بعد، يستدعي الواحد منهم، يدلي إليه بأخطر التصريحات حتى يمهد أمامهم الطريق. عندما جاءه هذا الشاب النحيل، بدا مرتبكاً، وجلا، لم يمض على تعيينه في أكبر صحف البلاد إلا شهر واحد، ها هو يقف أمام القائد، ناداه باسمه مجرداً، تلك عادته عند اللقاء بالناس، ينادي الاسم الأول، يزيل الحواجز، يضيع الهيبة ويبقيها في الوقت ذاته، عند القاء خطاب أمام جماهير لا أول لها ولا آخر، توصل الى نظرة جانبية لم يسبقه إليها أحد من عظماء التاريخ الانساني، صور الاسكندر توحي باطراقة رأس معينة لم يتخل عنها، وقفة ملوك الفراعنة تنقل وضعاً الهياً جاؤوا به من السماء، أما مشية نابليون فتتجسد من صمت اللوحات، في أيام عطلته يذهب الى المطار خارج المدينة، بخطا

بطيئة يمضي الى صالة المسافرين، يقرأ لافتات الشركات، يتأمل الراحلين، يرفع يده محيياً الجماهير على مهل يستعرض حرس الشرف؛ مرافقوه يمشون خلفه حتى يتيحوا للخلق فرصة رؤيته. أعلام ملونة. صوره معلقة، زهور تنثر فوقه، طفلان جميلان يتقدمان منه، يقلدانه باقة. على مهل يطلع السلم الى شرفة الزائرين. المودعون يقفون، يندس بينهم، يرقب هدير الطائرات، حركة العربات فوق أرض المطار، يرفع يده مودعاً، لا تنظر إليه عينان لكنه يرفع كلتا يديه، أطفال صغار، فتيات، رجال يرتدون القبعات. أي بلد ينزل إليها في العالم، يعرف لغة قاطنيها، الوجوه، يدرك الهمسات، النجوى الليلية، متاعب نهاية العمر، يخاطب الجماد، يسمع همسات النمل في أعماق جحوره، يوجه الطيور الى مواطن الدفء، يأمر سفراءه ومندوبيه بالتوجه الى الزعماء الكبار، يطلب منهم رفقاً بحشائش الحدائق من دوس الأقدام، اشفاقاً على قطرات الندى من أشعة شمس حارقة. أصول رسائله وبرقياته يضمها الملف الأخضر، يحتفظ بها، يوفر جهداً سيبذله علماء تاريخ لم يولدوا بعد، سيتنافسون في تدوين سيرته، استقصاء أخباره، يخضعون موقفه للتحليلات، كل آهة ونظرة في حياته الآن ستصبح همهم وشاغلهم، وثائقه وقراراته يحفظها أيضاً حتى لا يزيف أعداؤه حقيقة مواقفه.

* * *

ونلاحظ في رسالته الى السيدة أنديرا غاندي، رئيسة وزراء

الهند وقتئذ، أنه يلم بثقافة هندية واسعة، ويفسر هذا وجود عدد من الكتب في مخلفاته عن البراهمية، والبوذا الأعظم ويؤدي بنا هذا الى التساؤل، هل أضمر نية ضم الهند الى دولته العالمية التي أرسى... »

وتؤكد دقة العبارات التي خاطب بها بابلو نيرودا، بعد فوزه بجائزة نوبل، أنه نظم الشعر، بلغ درجة من رقة العبارة حتى لتبدو ألفاظه صافية كطيران فراشة فوق عبير حقل من السوسن. ومن المناسب أن نورد هنا تلك المقطوعة الشعرية التي عثر عليها بين مخلفاته، وللأسف الشديد لم يصلنا من فيض عبقريته سوى تلك القصيدة. وبعض أبيات أخرى...

« فتحت ستائري لتدخل البلابل الصغيرة
« ثقبت ورق نافذتي ليخرج البعوض المسكين
« أحب الفئران، فأترك لها شيئاً من الأرز..
« أرحم النجوم فلا أشعل مصباحي قط..

وبالتأكيد، لو تفرغ لكتابة الشعر لكسبنا - قطعاً - شاعراً عالمياً. أما قصائده القليلة، المنظومة عبر مشاغله العديدة، ومسؤولياته الجسام فقد أمر باعدامها قبل وفاته، حتى لا تتحول الى ما يشبه التراتيل الدينية لدى أتباعه، ومحبيه في..... »

* * *

أول الليل يخفت ايقاع اليوم، يشحب، ينادي باعة، يزعق بائع

صعيدي على البلح زعيقا حزينا يائسا من انعدام القوت ومجيء الليل، يدحرج أطفال أطواقاً حديدية، يود لو خاطبه أطفال الدنيا واحداً، واحداً ينبىء بما سيجيء، يحذر من أمور ستقع بعد قليل، يحقق لكل منهم الأمنيات العذاب، والأحلام الطرية الخضراء، يرجوهم ألا يسخروا منه، ألا يرجموه بالحصى، لو رأوه يقف يوماً فوق سلالم مسجد، أمام مبنى حكومي، يعلن رسالته، ينهي الى العالم ظهوره بعد طول استتار وكثافة احتجاب، آه لو يستعيد رحلة البائع الصعيدي عبر العمر الطويل، حنينه الى بيوت الطين، وشيش سعف النخيل، أرغفة الخبز ساخنة كنهود العذارى، زوجة بعيدة وصغار. يترجم له صرير الساقية، ما تقوله دقات وابور الطحين، ما يهمس به الضفدع إلى الضفدع، يرقق للبائع شظف أيامه، يجعل أيامه حانيات، يخرج الى المقهى الفسيح، يتجنب لقاء الأصحاب، يستشعر عذاب الجمرات في احتراقها، يرقّ لأوجاع كوب زجاجي يقاسي سخونة سائل، ينأى عن بؤرة الضجيج، صخب اللاعبين، رجاء باعة السميط، والجمبري، خبطات ماسحي الأحذية لصناديقهم، يتساءل، هل يعرفون الجالس بينهم؟ أيدركون موقعه من حركة التاريخ؟ لو عرفه أحدهم الآن، سيقف، يبتسم، يسأله عن اسمه، عنوانه، يكتبها في مفكرته ذهبية اللون، خصصها لتدوين أسماء بشر قاموا بما يتواءم مع رسالته. جندي مرور ساعد عجوزاً على عبور طريق، شاب تخلى عن مقعده لامرأة مسنة في مترو مزدحم، في مرحلة معينة من عمر الرجل الذي كشف حقيقته يفاجأ بالشرطة تدق بابه، لا..

لن يرسل إليه الشرطة، الأفضل رجال مهذبون، يقولون له.. سيادته لا ينسى أبداً، يذكر أحاسيسه في الرحم، أنت تقدمت منه يوم كذا، في مقهى كذا، صافحته، تعرفت اليه في وقت جهله الناس، تاهوا عنه، سيادته يهديك هذا المبلغ لتصلح به أمورك وتستعين على قضاء حوائجك، تفضل بعد أيام أربعة بزيارته، ستنشر الصحف قصة اللقاء، كيف تم، أي عبارات قيلت؟ انفعالات الرجل، تظهر تعليقات صغيرة موجزة، يجري الصحفيون تحقيقات عديدة حول الرجل، حياته قبل اللقاء وبعده، أينما سار في الشوارع تشير إليه الأيدي.. هذا الرجل صافح سيادته بيده، يتجه إليه أقاربه ومعارفه يطلبون منه التوسط لقضاء حوائجهم، ها هو عزمي، عزمي أقرب أصدقائه، يتجه إليه. سيصبح عزمي مستشاراً لشؤون قواته. عرف مكانه في المقهى، لا بد أن عبده البواب أخبره، لا يكف اللعين عن تتبعه،

- يا رجل بحثت عنك كثيراً.. مالك؟؟

- أهلا.. أهلا..

لا بأس من تبسط أقرب أصحابه في الحديث. لو أثبت عزمي ولاءه تماماً سيسند إليه ادارة البلاد المنطوية تحت رايته، ربما أبدى ضيقاً لأنه ينوي تعيين سامي رفيق دراسته في أشد المناصب حساسية، يعرف كيف يوفق بينهما، كثرة مشاغلها لن تدع للواحد منها فرصة الضيق بالآخر.

- أدعوك الى السينما..

القيام بأعباء العالم أمر صعب، لكنه بالتأكيد يقبل دعوة صاحبه الى السينما، ثم مأدبة العشاء، يضيق بخاطر عابر، لا بد أن يقيم له مأدبة مماثلة في وقت قريب. يرهق مصروفه، لكن دعوة عزمي ينظر الآن اليها بعين الرضا، بارتياح. عندما يعود الى حجرته، يفتح الدولاب، يخرج دفتراً صغيراً يحوي أسماء أصحابه، يقسمهم درجات، يقرن بكل منهم ما ينوي تكليفه به، سيقدمهم بنفسه الى الجماهير، يشرح تاريخ علاقته بكل منهم، ربما أضاف الى مهام عزمي مهمة أخرى، حقا سيبدي المؤرخون ملاحظة، لكنه سيقدم التفسير، يتحدث عن كل من أسدى إليه معروفاً، مقرضه وقت العوز...

* * *

« .. ولم يعرف عنه أي تهاون مع أصدقائه الذين أسند اليهم مختلف المناصب، شدد عليهم أساليب الرقابة، في الوقت نفسه لم يكلف أياً من أقاربه - برغم كثرتهم - بأدنى مسؤولية، بل نجدهم يعيشون حياة عادية جداً، لا يتمتعون بأي امتيازات، والمدهش... »

* * *

تتعلق عيناه بسقف حجرته المنخفض، لا يسمع دبيب خطوات ساكني الطوابق الأولى أو السائرين فوق الرصيف المحاذي لقاعدة نافذته الوحيدة. منها يرى معرضا من سيقان، وأحذية، وقباقيب،

وحفاء، يتبدل، يمرق، يتغير، عندما وقع عقد الايجار مع الشيخ عاشور المأذون صاحب العمارة، أحضر مصحفاً، فتحه على سورة ياسين، طلب منه أن يقسم يمينا خالصا لوجه الله تعالى وحده، الا يزني في حجرته، ما يخشاه أن يزني أحد السكان في ملكه. وقته يقضيه على المقهى المواجه يرصد الخلق، عبده البواب يقدم إليه أدق الأخبار يومياً، حتى الآن لم يتخذ قراراً بشأنها، هل يعد لعبده البواب محاكمة علنية، أو يأمر باعدامه رمياً بالرصاص، أو شيه على نار بطيئة؟ أبداً.. سيلتزم العدالة، سيطلب محامين للترافع عنه، سيحاسبه القضاء التاريخي حساباً عسيراً، لماذا يفتح عليه باب الحجرة دون إذن؟؟ معه مفتاح إضافي، ولا يخفي هذا. يسخر منه علانية عند خروجه ودخوله، في أمسية حادة، لحظة امساكه بقضبان النافذة يستكشف الآتي. زحف عبده البواب فوق الرصيف على أربع، اندفع فجأة محدثاً بفمه صوتاً مزعجاً، دفع به الى الوراء، آلمه سقوطه فوق حافة سريره الحديدي. عندما هدأت دقات قلبه، أيقن أن هذا لم يتم مصادفة، هناك قوى عظمى دفعت عبده البواب الى هذا السلوك، لم ينم ليلة بأكملها، عانى طويلا حتى اتخذ قراراً معيناً، منذ فترة يستشعر بدايات هجوم أعدائه، لا يعلنون عن أنفسهم إنما يأتونه متخفين. وحتى يعلن عن موقعه في حركة التاريخ، لن يثق بانسان، أو جماد، ولكن ربما تعرض لمحاولة اغتيال. نقوده قليلة ولا يمكنه اتخاذ حرس خاص من رجال الجيش أو البوليس المحالين الى الاستيداع، عزمي قريب الى قلبه. يثق تماماً به، قائد

قواته والحاكم الاداري لما سيتم غزوه من أقاليم، منذ الآن سيتم تكليفه بمهام حراسته، يمشي بجواره، يصحبه معه في المقهى، يفارقه أمام المنزل، الأفضل على مقربة منه حتى لا يكتشف عبده البواب شخصيته، أوقات مشيه بمفرده يتبعه عزمي عن قرب، يمضي الآن الى المعلم عدوي تاجر البط والأوز، يتردد كثيراً قبل ذهابه إليه، لا يرفض له طلباً، يتحدثان في أمور الدنيا، يتساءل المعمل عما تنويه أمريكا بالضبط؟؟ يسر في أعماقه، المعلم عدوي يسأله هو فقط، يعرف بحسه الفطري الصادق أين يلقى ما يشفي غليله، وتجيء اجاباته محددة موجزة، تدركه حيرة مفاجئة أثناء حديثه، ماذا يقول رؤساء الدول عند لقائهم في المطارات، أي عبارات يتبادلونها، لماذا يتعانقون في أول مرة يلتقون فيها؟؟ تدق الساعة ثماني مرات، يقوم فجأة، يصغيان معاً الى موجز الأنباء، يضرب ركبته بقبضة يده...

– فظيع.. ما يجري فظيع.. فظيع..

مذابح فيتنام مستمرة، رسائله الى الجنرال كاوكي لم تجد، ناشده طويلا الوصول الى حل مع مواطنيه الفيتناميين: هل ضعف صوته بحيث لا يسمع في سايجون؟؟ من يدري. ربما علم كاوكي بمضمون خطابه الى هوشي منه، لكنه لن يخفي آراءه، قاعدة لن يحيد عنها، لن يرضي كاوكي على حساب اخفاء رأيه في هوشي منه، المعلم عدوي حائر، في أصابع يده اليمنى ثلاثة خواتم ذهبية، رائحة الدجاج في الأقفاص، أوعية فخار مليئة بالبرغل المبلول، يلتحم

الحديث، يتشعب، يضمر، على مهل يميل، فجأة يرجع، تتشابك أصابعه تنفرج ثم....

* * *

«.. خلال هذه الحقبة من عمره، عانى مصاعب، ونزل به ضيق، ويرجع هذا الى ضآلة مرتبه الذي لم يتجاوز العشر جنيهات وأربعين قرشا وقتئذ، وربما يفسر هذا قراره الذي حير المؤرخين طويلا، مضاعفة مرتبات العمال والموظفين، وبالتأكيد حفرت هذه الأيام في روحه آثاراً لا تمحى، حباً لمعذبي العالم، أسى يدركه قبل نومه، كثيرون يتألمون في أنحاء الكون، لا يقدر على تخفيف جروحهم، عانى ليالي عديدة بسبب نبأ عن زلزال في ايران، يجسد السطور في وعيه. يسمع صرخات الضحايا عند انقلاب قطار، ينقبض قلبه إذ تسقط عصفورة في إسار فخ، يود لو يحول جسده ذرات، يذوب في الهواء مخففاً البلايا، ترياقاً سحرياً ينبىء بالمصاعب قبل وقوعها، رعشة هدب تنبىء بقدوم غائب، دهاناً سحرياً يقرب المسافات القصية، درجة من حرارة تدفىء العرايا، تخفف آلام الأرض إذ يحفرها الصلب القاسي......»

* * *

– بصراحة يا معلم عدوي.. أقصدك في جنيه وعشرة قروش.. حتى..

أزاح عن صدره ثقلا. أذاب عبئا، مبدأ المعونة لا يشين..

« لم يخف ما مر به.. والحقيقة إن الصدق المذهل في يومياته ليجعلنا.. »

* * *

ترى، أي منصب يسنده الى المعلم؟؟ في أي موضع سيقف بجواره عشية انتصاره في أكبر معاركه ضد أعدائه، لو نال نصيباً من التعليم لهان الأمر، هل يكلفه بتنمية الثروة الحيوانية والدجاجية؟؟

* * *

« .. لكنه كافأه بطريقة أخرى، بدأ يزوره كل شهر مرة، يمضي إليه بلا موكب رسمي، مرتدياً حلة خالية من النياشين، والأوسمة، تتوقف سيارته أمام الدكان، يقوم المعلم، يقف الحارس الخاص بعيداً، يبقى السائق في العربة، يعانق المعلم.... »

* * *

- أشكرك يا معلم عدوي.. وسوف أرده أول الشهر..
- ولا يهمك يا أمير يا ابن الأمراء..

لن يضيع دقيقة واحدة، ليمض الى مطعم أبي حجر، رائحة الفول والزيت، وأوعية المخلل..

* * *

« .. وهذه صورة فوتوغرافية لدكان أبي حجر الذي أصبح الآن متحفاً قومياً، وهنا.... »

* * *

يبدو الخادم العجوز جافا هزيلا، يراه في الافطار، في موعد الغداء، في العشاء، عندما يخلو المحل إلا من باعة وصبية يعملون في ورش قريبة، يجيء يوميا في الحادية عشرة تاجر قماش متجول، يسند لفافات الثياب الى كرسي مجاور، ينظر الى طبق الفول، يضيف إليه ملحاً، ذرات كمون، رائحة شطة. يخرج من جيب صديريته حافظة جلدية كالكيس، يرفعها الى أعلى، يدخل يده، يخرج فصاً من الثوم بقشره، يقطعه قطعاً صغيرة يضيفها الى الطبق، يقلب الحبات، يهرسها، يتراجع متأملا ما في الطبق، يبدأ بمحاصرة حبات الفول بثلاثة أرغفة، يشرب كوبين ماء، يأكل ثمرة بصل يأتيه بها الخادم كخدمة خاصة، الخادم ينام في الدكان، تساءل كيف يحتمل العجوز قسوة البلاط؟؟

« .. من الأحداث المهمة التي رواها في مذكراته، المنشورة بمختلف طرق النشر بعد رحيله الأبدي بخمس سنوات كما أوصى، إذ حدث أنه لم يستطع الرقاد ليلتين بأكملها، وجه الخادم يتعقبه في حجرته، أقسى ما ينوء به منظر عجوز يكد ليتقوت، الرجل منخنخ في مشيته، مقعدته لا تلامس كرسيا، دائما. يراه واقفا، يلبي الطلبات هنا، وهناك، أغرب ما يلحظه بابيوناً صغيراً مجهول اللون، يطل من ياقة قميصه، قام في منتصف الليل، تناول جاكتة لديه، احدى جاكتتين يملكها، (يراجع الفصل الخاص بثيابه، ومخلفاتها) خرج. دثرته برودة، المقهى المواجه أغلق أبوابه، ذهب الشيخ

عاشور، لكن عبده البواب لا يغفو، يبقى مستيقظا ليحمي العمارة من الدنس.

أخيرا، توقف، طرق باب المطعم الصاج طويلا، جاء جندي الحراسة، وقف لم يفارق موضعه، (**قام أحد الصحفيين بالبحث عن هذا الجندي، وفعلا قابله، ونشر رواية للحادثة، يراجع كتاب «ذكريات معه»**). بعد وقت صر الباب ارتفع الى أعلى محدثا ضجة، أطل الخادم، بدا أشد نحولا، الليل والبرودة، وقسوة الرقاد، اختصروا من جسمه قدرا، قال «تفضل.. تفضل يا عمي.. الدنيا برد»، لم يقل العجوز حرفا، أخذ الجاكتة، كأنه انتظر طويلا تلك اللحظة. أغلق الباب، وهنا لندع المذكرات تتحدث: «نظرت الى الجندي، همست «تصبح على خير»، أصغيت الى تردد خطواتي فوق الاسفلت الليلي، سمعت العسكري يقول: «ياما في الدنيا أولاد حلال»، ارتعشت شفتاي، ضمني أمن وأحاطتني طمأنينة، على الرغم من وحشة المدينة، وادراكي التام بتربص أعدائي، احتمال انقضاضهم علي، ابتعاد قائد عام قواتي وفقدان اتصالي به في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لم أبال، رأيت وجه العجوز المتعب. دمعت عيناي. وفي جوف الليل أخرجت الملف الأحمر، أضفت قراراً جديداً الى قراراتي، أي عجوز في دنياي لن يشقى أبدا، أبدا...»

عند عبور الميدان أصغى الى صوت رفيع يتردد من خلال مكبر الصوت:

«اللي رايح يقول للجاي، والجاي يقول للرايح، الحاج تيسير اتبرع بألف جنيه عشان الغلابة تاكل،

يا لحمنا يا موحد ربنا، ياللي بتتغدى بغاشة، وتتعشى ماورد، بخمسين بس يابن العبيطة.»

تدفق التأثر في صدره، لم يخل العالم من الطيبين، بخطى بطيئة اقترب من الدكان، الحاج تيسير وراء منضدة عالية، أمامه صندوق زجاجي يمتلىء بالكبد والكلاوي والقلوب، عمامته كبيرة، مبسم الشيشه لا يفارق فمه...

– أتوجه بأسمى معاني الشكر إليك يا حاج.. أنت رجل خير..

بدا فخوراً بدكانه، بالذبائح المدلاة من الخطاطيف، التفت الى صبي يمسك ساطوراً..

– شوف حاجة الاستاذ يا بني..

ينحني مرات، كاد يصطدم بأحد الزبائن، عينا الحاج قاسيتان.

«خمسين قرش يابو العيال، عشان الاهالي تتغدى، اللي متغاظ مننا يعمل زينا، ايوه يابن العبيطة..»

– شكرا يا معلم.. شكرا..

توقف الحاج عن التدخين، يمسك مبسم الشيشة كما يمسك العصا، لم يتم حديثه عن انسانية العمل وعظمته، أسرع الخطى مبتعداً. الحاج لم يفهمه، على وشك ايذائه، فكر في ارسال مندوب إليه

يشرح وجهة نظره، أو برقية مطولة يعلن تأييده، لم تفارقه الحيرة حتى المساء، جاءه قائد قواته وحاكم الأقاليم التي سيتم فتحها، أو كما يسميه الآخرون «الرجل الثاني» صافحه، خاطبه بألفاظ ود.. في مثل هذه اللحظات يتخفف من المراسم، يتصرف كأي انسان بسيط عادي لا تثقل كاهله أعباء جسام، بدأ يتحدث اليه عما قام به الحاج تيسير كيف تبرع بألف جنيه كاملة، قام، راح وجاء في الحجرة الضيقة، ربما كان الحاج واحداً من حلفاء الخير، قام عزمي قائد القوات، تقدم منه، دفعه في صدره، صفان من أسنان يلمعان في فمه، لم يره ضاحكاً من قبل هكذا، لن يسمح للعلاقة أن تصل الى هذا الحد من البساطة، يضحك عزمي، ما الذي يجري؟ هل يواجه تمرداً من أقرب الناس إليه، أخطر شخصيات معاونيه، تراجع خطوة، عليه التزام الحذر، في مثل تلك المواقف ينعطف مجرى التاريخ. رفع يداه أمام وجهه، قال بصوت عال: «الحاج تيسير من حلفائنا.. الحاج تبرع بألف جنيه ويبيع الكيلو بخمسين قرشاً». يقهقه عزمي قائد القوات، ترتعش عضلات وجهه، يتعاقب عليه زحام تعبيرات صامتة، عزمي يمسك بطنه، يضحك حتى ينحني، هل نسي دوره كحارس خاص في تلك الحقبة، هل يكشف ظهره للمأذون، لمدير المصلحة، لعبده البواب، لسائر الأعداء، هل يدعه وحيداً بلا سند، ربما استمالوه إليهم، لا أمان في الدنيا، يتراجع حذراً حتى يلتصق بالجدار..

* * *

بيان

يؤسفني أن أنهي الى العالم قراراً اتخذته بخصوص قائد قواتي، وحاكم الأقاليم المنتظر غزوها، وقائد حرسي، عزمي علي شاكر، إذ أبدى سخرية مني، وأهان مشاعري أنا أقرب الناس إليه، من أوليته ثقتي، واتخذته مستودعاً لسري الدفين، من هنا قررت اعفاءه من كافة مناصبه، وتجريده من الأوسمة والنياشين الممنوحة له مني، مع احتفاظه بالوشاح الأعظم لأنه يستحقه فعلا، وينقل اسمه من ملفي الأحمر ومفكرتي الذهبية، الى الملف الأسود، وسوف أتولى جميع مهامه بنفسي..»

* * *

يطيل التأمل في صفحات الملف الأسود، شطب محمد أفندي من قائمة خصومه، صباح اليوم قابله أبدى ناحيته وداً رائقاً بعد جفاء، بعناية أضاف اسماً آخر بعد طول تردد، الشيخ عاشور صاحب العمارة. الملف لا يضم من آذوه وخانوه وضايقوه في حياته، إنما يحوي أسماء عديدين من أزمنة قريبة وبعيدة، الأعاصير المدمرة، قاطعي اصبع جيفارا، مقارني البصمات، مغلقي الزنازين، نابليون، الاسكندر، الطاعون، تيمورلنك باني الاهرامات من جماجم البشر، هتلر، جورنج، تجار الرقيق، صانعي السلاسل، هند بنت عتبة ماضغة كبد حمزة بن عبد المطلب، مثقلي صدر بلال بالحجر، العابث بشفتي الحسين، قضاة أحمد بن حنبل.. ربما سئل يوماً، وكيف يتخلص منهم؟ إن الاقتصاص من الشيخ عاشور، وحلمي زميله،

والمدير غليظ الساعدين، كثيف شعر الصدر، ووالد شهيرة التي شرع في خطوبتها يوماً ممكن، لكن.. وحتى لا يحرج، أعد منذ الآن أجوبة جاهزة، متقنة الصياغة لكل ما سوف يوجه إليه يوماً.

* * *

« .. أعيد صياغة تواريخهم، لا تهمني عظمة الإسكندر، لكن يعنيني كم عدد ضحاياه، وبدلا من البحث عن قبره لتمجيده، ربما نبشناه، ألقينا بقاياه في البحر.. لا تهمني صلات مدير المصلحة وأقاربه وسلطانه، لن أعبأ بأمجاد نابليون، أو ملكية الشيخ عاشور للعمارة..

- نلاحظ أنكم أدرجتم الفقر والآلام والمخاوف في الملف الأسود..

وهنا أطرق الزعيم، قطب جبينه، زم شفتيه، ثم اعتدل فجأة..

- القضاء عليهم حلم كوني أبدي.. بجهدنا الإنساني المحدود واللامحدود نخلق جيوشاً لا تهزم، نحارب الأوبئة، نغتال الأوجاع نطاردها إلى كون آخر.. »

إلى عزمي علي شاكر، قائد قواتي وحاكم الأقاليم التي سيتم غزوها، وقائد حرسي، وصديق عمري سابقاً.

بقلق تابعت استمراركم في السخرية مني، والهزء بي أمام أعدائي في المقهى والمصلحة وهذا لا يليق، وأرفضه بشدة... أنذركم..

* * *

أما الشيخ عاشور، فلا بد من البحث عن إسلوب مستحدث لم يصل إليه إنسان لتعذيبه، عندما طرق الباب اضطر إلى إخفاء برقية تهنئة إلى الملك محمد ظاهر شاه ملك أفغانستان بمناسبة عيد ميلاده، ومجموعة ردود على خطابات أرسلها إليه أطفال من أركان الدنيا، يخاطب كلا منهم باسمه، أحياناً أثناء سفره، يأمر بوقف القطار، أو السيارة، يحادث طفلا عابر طريق، أو فلاحاً كادحاً، أو إمرأة عجوزاً تحمل قفصاً من أوز وبط، تتجه إلى السوق لتبيعه، يسأل عن مصاعب الحياة، كيف تحل، وكثير من رجال شعبه لا يعرفونه، خاصة في المناطق النائية، يتصور فيما بعد وقع الخبر على وجوههم المتعبة، الطيبة، عندما يعلمون أن محدثهم هو الزعيم بذاته، يستعيدون كلماته ولهجته، وطريقة إخراجه الألفاظ، أحد الخطابات هنا يسأل كاتبه الذي ما زال في مقتبل العمر، هل يتحدث كبقية البشر عندما يخلو إلى نفسه، ما الذي يفكر فيه قبل نومه مباشرة، كيف يخاطب أصدقاءه آه.. يدركه ألم، كتب إلى الطفل النائي، يشرح ما وقع من عزمي، ما أتاه ترك في نفسه جرحاً لا يلتئم وعذاباً نفسياً ينوء به لحظات الوحدة، يضايقه ما اتخذه ضده من اجراءات، ملف واحد يضم اسمه واسم الشيخ عاشور.. دخل الشيخ، قعد، أصابعه تدحرج حبات المسبحة، ينظر في أنحاء الغرفة رفوف مثقلة بكتب، كلها تراجم ذاتية لعظماء..

«وتوضح الصورة ضيق الحجرة، يبدو إلى اليمين الدولاب الصغير الذي ضم الملفات كلها، القرارات، والبرقيات والبيانات

المتضمنة للمشاكل والحلول، وفي المقدمة السرير الحديدي الصغير تحته الحذاء القديم مرتوق النعل والقبقاب وزوج من الجوارب، والمعروف أن خطته بالنسبة للجوارب تتلخص في شراء زوج واحد، يرتديه يومياً، يغسله بماء بارد قبل نومه، وعندما يتمزق يلقيه ثم يشتري زوجاً جديداً، وبجوار السرير مكان خال احتله يوماً مقعد قديم سرقه عبده البواب، ويلاحظ في الصورة عدم استواء المرتبة فوق السرير. ويرجع هذا إلى غارة مفاجئة قام بها عبده البواب، سرق خلالها قطعتي خشب من « ملة السرير ». وسبب هذا أوجاعاً وآلاماً.

– هل تذكر عندما عرضت علي استئجار غرفتي.. أي شرط اشترطته عليك؟

* * *

تبرق آلات التصوير، بينما يقف في المواجهة رافعاً كلتا يديه...

* * *

– نعم يا مولانا.. والله لم أخل به أبداً..

* * *

« سيداتي، سادتي،

ما نشهده الآن لا مثيل له، القاعة حافلة بصور العظماء الحاصلين على الجائزة من قبله، السيدات ينثرن زهور البانسيه التي صرح سيادته ذات مرة بحبه لها، أبناء وطني.. »

* * *

– أنا لا أكذب.. أنت أدخلت عندك امرأة، وقضيت معها وقتاً..

* * *

بين الصفوف تجلس شهيرة، والمعروف أنه اختار قرينته من أبناء الشعب، في سنين حياته الصعبة رآها كثيراً تنزل سلم العمارة أثناء ذهابها إلى المدرسة، أمسك قضبان النافذة، إذا سارت فوق الرصيف، يدقق النظر في حذائها وساقيها، إذ يمران بمحاذاة وجهه، لم تشعر بعاطفته النقية قط، لم تدر شيئاً عن الليالي العديدة التي قضاها يحلم بها، يراها بجواره في لحظات معاناته قبل اتخاذه قراراً يمس ملايين البشر، أبداً، لم يعبأ عندما اختارها بعد وصوله بما جرى يوماً عندما توجه إلى الطابق الثالث، بعد تلميع حذائه وإضفاء بريق عليه، جلوسه في وقار أمام والدها فضي الشارب، أصلع النظرات، حين راح يستجوبه بدقة...

* * *

– من الآن لا تصلح ساكناً عندي.. أنا رجل صالح لم يدنس بيتي مخلوق، قطعت على نفسي عهداً ألا يرتكب زنا في بيتي.. تجيء و....

* * *

إلى الزعيم، إلى الزعيم، أمل العالم، وقائد القوات التي لم تعرف الهزيمة،

إزاء استفزازات الشيخ عاشور، وتهديداته، نرجو منكم التمسك بضبط النفس...

* * *

- افتروا عليّ يا مولانا.. عبده البواب يطمع في تأجيرها لأحد أقاربه..

* * *

وهذه صورته قبل إنتهاء آخر معاركه، وأشدها ضراوة، وقد نقلنا عناوين بعض الصحف الصادرة وقتئذ، ومقتطفات من خطاب النصر..

« محاصرة العدو من ثلاث جهات »

« إبادة الفرق الرئيسية والتوغل في.... »

« قاد المعركة الأخيرة بنفسه... »

« أخرست الألسنة، هزمت الأمراض، أسرت الأوبئة في قمقم نحاس، نفيت رياح السموم، طوعت الخماسين، منعت نزول الأمطار في غير أوانها، منعت الجدب، دفعت الرزق إلى شباك الصيادين.. »

* * *

- والله يا مولانا لم يحدث شيء من هذا.. أبداً..

- تأخر الإيجار لمدة خمسة شهور، قلت الصبر جميل، جاؤوا وقالوا أنه يصرخ في الليل، قلت ربما المرض..

إسمع.. بدلا من تشريدك في المحاكم، وأقسام البوليس، إبحث عن مكان بعيد عن بيتي.. وأسامحك في الشهور القديمة..

* * *

« ويتخيل الفنان في هذه اللوحة الزيتية الرائعة، لحظة استسلام الأعداء، يبدو سيادته ناظراً إلى بعيد، بينما يقف في أسفل اللوحة بشر وعظماء من حقب تاريخية مختلفة، لكن المحير ظهور عزمي علي شاكر في..

* * *

- لا تحاول.. لن يرق قلبي لك.. لن تبقى في بيتي..

* * *

...نرجو الحفاظ على ضبط النفس.

* * *

يقوم إلى أين؟؟ ما موقف الأجيال القادمة من هذه اللحظات؟ شوارع المدينة أفواه حيات شرهة، يحاول الأعداء محاصرته، الآن أدرك خططهم، يتربصون به، الشيخ عاشور أول طلائعهم. ألم يجلس أمام العمارة لمراقبة السكان؟ منذ لحظات فكر في إتخاذ قرار، أعاده عزمي إلى مناصبه، يوليه قيادة القوات، لكنه يكتشف الآن عبث ما فكر فيه، خانه أقرب الأصدقاء، آخر الأحبة، صاحب عمره، انضم إلى أعدائه، يقود فيالقهم، يعرف مواطن ضعفه، الهين من حصونه ودفاعاته، عزمي علي شاكر يقف في صف واحد إلى جوار

الشيخ عاشور، عبده البواب، مدير المصلحة، كافة من ناصبوه العداء، أضمروا له الكراهة. عزمي يرسم الخطط لتطويقه، آه من ضياع العمر الطويل، يريدون حرمانه من لحظة يعلن فيها النصر عليهم، ترفرف بيارقه على تخوم لا يدرك نهايتها بصر، يمنعونه من تنفيذ قراراته، محاربته بالأوجاع والآلام، بسرعة فتح الدرج الثالث في الدولاب، يعرف ما سيقومون به، في غفلة من الخلق يهجمون عليه، يكممون فمه، يمنعونه من البوح، الاتجاه إلى الأفئدة والقلوب لما ينويه لسائر البشر، يعرف قوة الأعداء، ينوء بخيانة قائد قواته، لكنه سينازلهم بطريقة أخرى. يلملم الشيخ عاشور أطراف قفطانه. سيقرأ على الناس من نافذته المحاذية لرصيف الطريق آماله، ما ينوي تنفيذه، عندما تصل إلى آذانهم قراراته، تتبدل الأمور، يقفون سداً حائلا، حصناً منيعاً لم يختبره قائد قواته الخائن من قبل، سيدفعون عنه الأعداء، يساعدونه على الاسراع في تنفيذ ما ينويه.

– اصغوا إلي.. اصغوا إلى ما اعتزمته بشأنكم..

تروح السيقان وتجيء، أحذية قديمة وجديدة، أرض مبلولة، الطين أسمر لزج، أين مستشاروه الذين استدعاهم من جوف التاريخ، أين؟.. يرفع الشيخ عاشور عصاه، يبدأ الهجوم المعلن، لكنه يحيط قضبان النافذة بذراعه، باليد الأخرى يفتح صفحات الملف الأحمر.

– أصغوا إلى قراراتي... أصغوا إلى ما..... »

البلاد البعيدة

عدلي عبد الرؤوف..

السيد عدلي عبد الرؤوف..

رجاء التوجه بسرعة إلى الطائرة..

أيها السادة نرحب بكم، نقلع الآن، الرجاء ربط أحزمة الأمان وعدم التدخين، ارتفاعنا ألف قدم، نصل بعد زمن غير محدد إلى جبال قاف، أرض واق الواق، ثم نطير إلى جزر بعيدة نائية لا يسكنها غير نساء جميلات مستباحات، نرجو لكم رحلة سعيدة عبر ممرات جبال الألب المنخورة في عنق الصخور المجللة بالثلوج.

سنطوف حول بحيرة جنيف، ثم تشربون البيرة في ميونيخ، تنزلون في ريكيافيك عاصمة ايسلندة، طائراتنا تتجنب جبال النحاس، والطلاسم التي تمنع الطيران وراء البحر المحيط.

السيد عدلي، نهنئك بسلامة الوصول، هنا نيويورك باريس، روما، هنا لوجانوا، زيوريخ، هنا موسكو، طوكيو، هنا سنتياجوا، مدريد.

السيد عدلي.

السيد عدلي عبد الرؤوف.

هنا.. هنا سمالوط، سمالوط ما بعد العصر وقبل الغروب، سمالوط يتيمة، منكمشة، الغبار أمامنا وفوقنا وتحتنا، يخفي العمر الضائع، يطلع الغبار من أرض سمالوط، ينزل من سماء سمالوط.

★ ★ ★

الآن بالذات هذا الجزء من الثانية، كأنه يرى اللافتة القديمة فوق رصيف المحطة لأول مرة، يلحظ الحروف السوداء الباهتة فوق الارضية الرمادية، في طفولته ويجيء إلى المحطة يتقدمه أبوه، يجري وراءه، لحظة أن تلامس أقدامهم رصيف المحطة، يزعق.. ابعد عدلي.. ابعد عن الرصيف يا ولد.. يخاف أن تزل قدمه، يسقط بين الفلنكات، يخاف عليه مع أن الطريق خال ولن تأتي قطارات، سمالوط الحروف الضائعة، والهواء في لون الترعة، من أين اسم البلدة الغريب؟؟ كم رجلا وامرأة وقفوا مكانه، راحوا، جاؤوا سنين.. وبقيت البلدة بهم أو بدونهم، من الآن حتى صباح اليوم التالي لن تقف قطارات، عدا قطارات البضاعة الكثيرة العربات، الخالية من الركاب، تبعث الملل، بطيئة، في الليل أثناء نومه يسمع صرير عجلاتها الحديدية واصطدام مقدمات العربات ببعضها عندما تهدىء لتقف، في الثامنة والنصف، بداية الليل، لحظة اعلان الراديو عن نشرة الاخبار الرابعة، إشراق الفجر في نصف الكرة الأرضية الآخر، لا يصدق هذا بسهولة، كيف الليل هنا والنهار هناك؟ في هذه اللحظة تماما، يمرق قطار الديزل القادم من أسيوط، العربات التي يراها في الصباح، تعود في المساء، تقوم الوحدة من

القاهرة في العاشرة، تنتهي رحلتها في أسيوط، تعود أول الليل، منذ وقت قصير، قال فؤاد، وعيون المسافرين تتطلع إلى مجيء الاكسبريس.

لو أنني نزلت المنيا وركبت الديزل لضمنت رحلة مريحة، عربات الديزل لا تدخلها ذرة تراب، لا تشعر فيها باهتزازات الطريق، ولا طول المسافة..

لحظتها، انتفخ قلبه، وخزته دبابيس، لكم يبدو فؤاد شابا وصغيرا، عاش مدة قصيرة في المدينة مع هذا يشعر أنه يعرفه من بداية العمر، قال منذ ساعة ونصف بالضبط..

لا بد أن ألحقك عن قريب.

ابتسم فؤاد.. ضحك..

توحشني، سأرسل لك خطابات.. لا بد أن نتراسل..

كلمات معتادة تقال بلا معنى، فؤاد سينساه، لن يذكره، لو أرسل خطابا فلن يكتب الثاني، الآن، يروح، يجيء فوق الرصيف، فتيات صغيرات، حافيات، ثيابهن ممزقة، عائدات من المحلج، ضيق عينيه، مشيتهن بطيئة، ضحكاتهن متعبة، فيها إرهاق يوم عمل طويل، كأنهن غير موجودات. حلم يمر به، ماء الترعة لا يتحرك، تلاميذ من المدرسة مقبلون، صمتوا عندما اقتربوا منه، رفعوا أيديهم بالتحية، يعرفهم جميعا بالاسم، عائلاتهم، تفاصيل كثيرة عنهم، اخرج دفتر مواعيد القطارات، لا يسافر أبدا، إنما اشتراه لتتبع

القطارات المارة بالمحطة، يتأمل أسماء البلاد والقرى، خطوط السكك الحديدية الواصلة بينها، يغمض عينيه ويتخيل الاكسبريس الذي قام الآن من نجع حمادي، بعد مدة ينظر الساعة، الآن يقترب القطار من أدفو، فؤاد ركب قطار رقم ٨٧، في الرابعة والثلث تحرك، منذ ساعة ونصف، ساعة ونصف؟؟ ربما سنة، ربما غدا، لا يصدق رحيله، بعد خمس دقائق يقف القطار في مغاغة، يعوي عبر البلاد الصغيرة، إذ يلامس العقرب الصغير الرقم الحادي عشر، والكبير الثاني عشر، ينتصف الليل، ينزل فؤاد، تمضي ساعات ثم يروح إلى الأبد، تبتلعه الموانىء البعيدة، صفارات السفن، ودفء المقاعد الوثيرة في الطائرات، عربات الباص الغريبة الألوان، ذات الطابقين، في مدن كل بيوتها محدبة السقوف، محاطة بحديقة صغيرة، أحواض زهور، النافورات الملونة في الميادين الفسيحة، النيون، دفع الهواء إلى صدره، احتوى البيوت المنكسرة سجينة اسياخ الحديد وعروق الخشب، أسند قدمه إلى الدكة الصغيرة، الآن الآن، هذه اللحظة يقرر، لن يبقى لحظة واحدة هنا، لن تشرق شمس جديدة عليه في هذه البلدة، لن يجيء نهار يصحو فيه ويذهب إلى المدرسة، لن يغسل رأسه في مائها، لن يلتحف ببطانية تحت سقف بيته، لا بد، هذه اللحظة، تلك الثانية، الآن، الآن، قبل اختفاء عربة النقل السريعة هذه، قبل أن يغلق هذا الرجل الذي يتثاءب فمه، لا بد أن يمضي، يذوب، يتلاشى، يحزم روحه بالشنابر، يرميها في الفراغ المدفوع أبدا، يمرد عروقه حبلا طويلا يتعلق به، يربط نفسه بساق

الرخ، يرحل، يرحل، يلم أجزاء جسمه في مكان بعيد قصي وناء، أما هنا، البلدة، البيوت القديمة، بنات المحلج المنهكات، العمر المنقضي في الحواري الضيقة، الوقوف عند دكان البقالة، رنين الجرس في فناء المدرسة، مشية الناظر، خوف التلاميذ، نظرات الرجال إليه، ذهابه اليومي المنتظم إلى محطة القطار، تأمله الركاب، ترى ما اسم هذا الرجل، تلك المرأة التي تنظر من وراء زجاج عربة الأكل، أهي متزوجة أم لا؟؟ كيف تسافر بمفردها، ربما أغراها شاب واختلى بها في عربة القطار، بالضبط في العربة نفسها، هذا البدين، لا بد أنه موظف كبير يسافر مجانا على حساب الحكومة، أطفال مع أمهم، أبوهم ينتظرهم عند الوصول، يتوقف أمام نافذة يطل منها رجل يرتدي الملابس البلدية، حول أصبعه خاتم ذهبي كبير، لا بد أنه مقاول أو تاجر غلال، ضابط بوليس في الدرجة الثانية، يغمض عينيه، ربما بلدته الأصلية اسكندرية ويعمل مأمور مركز أو رئيس نقطة في بلدة قصية بجوف الصعيد، الضيق يبدو على وجهه، ضيق أو تعب، لا، إنه ضيق بعودته من إجازاته، ربما يقيم أطفاله في اسكندرية ولا يراهم إلا في الاجازات، زوجته كرهت أن تقيم معه في الصعيد، إذن تقيم بمفردها في شقة باسكندرية، من يدري كيف تقضي وقتها، ربما تصاحب شابا عفيا فالرجل يبدو عجوزا قبل الأوان، ينقل عدلي افندي خطواته، يمر آخر قطارات الركاب، يعود إلى طرقات البلدة، الغموض في جوف الليل، صراخ الغفير الممدود، من

هناك؟؟ الزحام لحظة الخروج من السينما ليلة الخميس، تخيله لما سيجري طوال الليل بين الرجال والنساء، أكيد فالليلة ليلة جمعة، خوفه من الترعة، ما تحمله من رمم، ابتعاده عنها، مرور العربات فوق الطريق، اللحظات البطيئة، يوم الجمعة الخامل المشمس الكئيب الخالي من الحركة، نزول العصر القتيم فوق البيوت، الجرارات المولية إلى العزب البعيدة، المشي فوق الزراعية في ثنايا برد الشتاء الأزرق، مصنع السجاد، حجرة فؤاد التي رأى الدنيا فيها، كل ذرة هواء، تملأ الفراغ ما بين هذا كله، لن تجد طريقها إلى صدره في شهيقه التالي.

* * *

فؤاد: ألم تذهب إلى الحسين؟؟

...: زمان زرته مع أبي.

فؤاد: إذا قلت لك أن بيروت فيها من الاماكن ما يشبه الحسين فهل تتخيل المكان؟؟

...: زمان زرته وكنت طفلا مريضا.. رحنا أيضا السيد البدوي..

فؤاد: يا سلام يا أستاذ عدلي، تطيق البقاء كل هذه السنين هنا؟؟ البلدة كلها شارعان، أنا من ساعة ما نقلوني هنا ولا أطيق روحي، أنت عمرك كله تفنيه هنا..

...: احك عن بيروت..

فؤاد: طبعا تعرف ناس البلدة بالاسم؟؟

...: كلهم.. حريمهم وعيالهم.. خمسون سنة أراهم كل لحظة.. احك..

فؤاد: لن يكلفك رغيف كبير محشو بالشاورمة غير ليرة واحدة..

...: ......؟؟

فؤاد: لحم مشوي على وهج النار، لكن عموما الحياة غالية جداً هناك، إنما لو أمسكت لن تنفق في اليوم أكثر من عشرين ليرة..

...: ......؟؟

فؤاد: العملة اللبنانية.. تساوي رسميا حوالي عشرة قروش وعمليا عشرين.. معك فلوس في لبنان تشتري كل شيء.. كل شيء ممكن تتصوره تشتريه بالمصاري في لبنان.. المصاري يعني النقود..

* * *

سواد الليل، لا تبدو تفاصيل البيوت، البلدة مطموسة، الانفاس لا تعبر الجدران إلى الخارج، يتصاعد بخار الماء كثيف القوام، من الحقول القريبة، ينفذ الصمت إلى مرارته، خطواته بطيئة، يكتشف البلدة من جديد، لم يعش أبدا لحظات الليل هذه، دائما يمر آخر القطارات التي لا تقف فلا يمكنه رؤية وجوه ركابها، في التاسعة، يمضي إلى كشك التحويلة، العامل سئم اسئلته المكررة، منذ

سنوات فرح جدا ، لأنهم نقلوا العامل وجاء آخر ، يروح ، يجالسه ، يحضر له فطيرا مشلتتا وجبنا قديما ، يسأله ، كأنه لا يعرف شيئا ، ما الحكمة من السيمافور ، كيف لا يخرج القطار عن القضبان ، هل السائق هو الذي يدور بالعربات عند المنحنيات أم أن القضبان تحدد المسار ، كيف لا تقفز عربة فوق الأخرى خلال الاندفاع السريع ، الليلة يتمنى لو تكلم فؤاد حتى الفجر ، لحظة خروجه لسعه البرد ، خطواته واسعة في البداية ، صرير الحشرات يرتفع من جانبي الترعة ، أزيز في أعماقه ، يمضي الآن إلى بيته ، يفتح الباب ، رائحة الرطوبة والأثاث القديم ، البيت بارد ، لا تضيئه حرارة موقد ، لا تدفئه صيحة طفل ، يعلو تساؤل أمه ، هل وصل بالسلامة ؟؟ فيقول .. جئت الحمد لله ، فوق الطبلية يأكل بسرعة ، يقوم ، يغسل الصحون والأواني ، تئن أمه ، لو باستطاعتها فعل ذلك لما تأخرت ، يغسل رأسه من الغبار ، يتخلل الماء ما بين أصابع قدميه ، بالفوطة يجفف وجهه ، يبحث عن قماشة يدلك بها قدميه ، يدور في البيت ، بنوه واسعا عاليا لماذا ؟؟ عروق الخشب مصلوبة ، الجدران قاسية ، يتأكد أن نافذة المطبخ مغلقة ، قفلها محكم ، الغرف خالية ، يطل داخل كل واحدة ، يتراجع أخيرا ، الباب الرئيسي ، يدفعه ، يهزه ، يتأكد من اغلاقه ، يسألها ، تحتاج إلى شيء ؟؟ تدعو له ، تطلب منه ألا يتعب نفسه ، السهر مرهق عليه وعلى صحته ، يهز رأسه ، الكلمات واحدة ، كل ليلة هي هي ، لا فرق بينها وبين الليالي المنقضية ، يدخل إلى سريره الخالي ، الرطوبة تنفذ إليه تحت الغطاء ، يحيط وجهه عدا أنفه

وعينيه ، فجأة .. يقفز ، بالضبط نفس اللحظة الليلية ، يطل برأسه تحت السرير ، الفراغ اليتيم ، ربما تسلل أحد ، يذبحه إذ يغفو ، يصغي إلى وقع الزمن الليلي الرتيب ، الأصوات البعيدة حيث سعف النخيل ، لا تمضي دقائق حتى تخزه مثانته ، لا يمكنه النوم إلا إذا أفرغها تماما ، لو تردد إلى دورة المياه عشرين مرة ، يعود ، يتمنى النوم ، تتوجع أمه ، يسألها عما بها ، تقول لا شيء ، لا يدري .. نام أم لا ؟؟ في الصباح يقوم على صرير المنبه العتيق ، استيقاظ السابعة المرهق ، النهار الضعيف يتلوى في الخارج ، تبدأ الدراسة بعد قليل ، يقوم ، يتثاءب مرات ، يتحسس الأرض بحثا عن شبشبه ، يمسك ظهره ، صباح الخير ، صباح النور يسمعها واهنة ، لكم يزعجه غسيل رأسه بالصابون ، كل يوم منذ خمسين عاما يغسل رأسه بالصابون والمياه الباردة ، رأسه وفمه وأسنانه ، ثم الدورة ، يخرج ، يلبس ثيابه بسرعة ، يأكل بسرعة ، بيضة واحدة مسلوقة وقطعة خبز ، ترقبه أمه بنفس النظرات ، يدس الحفظة في جيب جاكتته ، الشارع خال ، يكاد يجري ، في الطريق الواسع تبطىء خطواته ، عندما يسرع تنحني قامته الطويلة جدا ، الرفيعة ، يثير منظره الصبية ، تبدو يداه وكأنها لا علاقة لها بجسمه ، لاحظ هذا منذ عشر سنوات ، من لحظتها يمشي متمهلا حذرا ، أحيانا يهز رقبته وكتفيه ، يعدل وضع جاكتته ، يرفع يده بالتحية خمس عشر مرة ، عند القنطرة ، أمام الحلزونة المزدحمة المتجهة إلى القرى البعيدة ، في نفس المكان ، تراوده الرغبة ، آه لو رجع ، يستكمل نومه ، ما أحلى النوم حتى

العاشرة، يتثاءب، خمسون سنة، تحية الناظر، الطابور، أصص الزرع، الورود، الفصول كئيبة الطلاء، الادراج، كل ثلاثة تلاميذ يجلسون فوق الدكة، الروائح الكريهة التي تملأ الجو فجأة، في البداية، كان يصيح.. من أتاها؟؟ من أتاها يخرج؟؟ وطبعا لا يقوم أي واحد منهم، لاحظ أنهم يكتمون ضحكا إذ يزعق فيهم، من أتاها؟؟ آه لا بد أن الكلمات تخرج بطريقة توحي بسخرية، الآن عندما يشم رائحتهم يصيح، افتحوا الشباك، افتحوا الشباك في عز الشتاء، الكلام المعاد، لو عاش الف الف سنة، لن يتغير، النحو هو، الالفاظ هي، لا تتبدل، أكل، شرب، نام، ضرب، عاط، زاط، هبط، صعد، نزل، طلع، أمسى، أصبح، ما زال، كأن؛ لأن، حيث، هي، هو، سافر، رحل، وصل، ودع، ساح؛ رأى؛ أن؛ يزهقون، يفتحون أفواههم، في الظهيرة يلفه التراب، لحظات ما قبل نوم العصر، موت اليقظة في الخارج واقع غير ما يراه ويلمسه، صمت ثقيل كجبل، لو فتح الباب، فلن يلقى غير الفراغ المجهول، لا أثر لقدم إنسان، الظلام يدرك الظلام، لا حس، لا خبر، يتمنى لو أوقف قطارات الدنيا، سفنها، وطائراتها، حتى عربات الرحيل الصغيرة، ينزل الركاب، يوقفهم في طابور طويل يقاس بالسنين، يسأل كلا منهم عن حكايته بالضبط، لماذا سافر؟؟ من أين جاء؟؟ إلى أين يمضي؟؟ إذ يرى الناس ساعات الصيف بجوار الترعة، ماذا يدور في أذهانهم، هل يشعرون بمثل ما يشعر به، يرونه بأي صورة، آه لو يرى نفسه من الخارج، لو يسمع وقع صوته في الآذان.

سيد عدلي..

هل تفضل الرحيل بالطائرة، أو المركب؟؟

الطائرة ثلاثة أسابيع، أما السفن فلا تتم الرحلة إلا بعد عدة شهور.

لن تأكل فوق ظهرها غير السمك، وعشب البحر المطبوخ، وزيت الحيتان.

أي الأنواع تفضل؟؟

في البوينج راحة وسرعة، أليوشن آمنة ثم وجبة إضافية، خدمة ممتازة، مضايقة بالنسبة للصوت لكنها آمنة.

تفضل، اجلس بجوار النافذة، لا تفك الحزام، أوثق نفسك جيدا.

عندما تصل إلى البلاد الصغيرة الرقيقة الواقعة على حافة العالم، ستلقى أمامك، كل ما رأيته في المجلات الأجنبية وكتب السياحة المصورة التي أخذتها من فؤاد، ستركب الزحافات فوق الجليد، ترى الدخان يتصاعد من البيوت الصغيرة المغلقة، الفتيات الجميلات يمشين في الطرقات يبحثن عن صديق، رمال المصايف، المظلات الملونة، الغوص في أعماق البحار، دخان البراكين، الفنادق المعلقة في الغابات الكثيفة، المليئة بالوحوش، وصراخ القردة، الاطواف الخشبية السابحة فوق الانهار العريضة، سريعة المجرى، طلوع الجبال، السحاب تنظره من أعلى، أنت تركب الغمام، طير

السماء المجنح ، سترى هذا كله يا سيد عدلي ، الآن ، اربط حزامك جيدا أوثق نفسك ، أوثق نفسك .

* * *

عند عبور الكوبري الخشبي فوق المصرف ، البيت في نهاية الطريق ، كيف عاش خمسين سنة أيامها متشابهة؟؟ يوم واحد يغني عن بقية الأيام ، ليله نهاره ، نهاره ليله ، طوله خمسون ، سبعون ، مائة ، انكمش قلبه بين ضلوعه ، انسال داخل فقرات ظهره حزن صلب رفيع ، خمسون في سواذ وحل الابراهيمية ، رحلت ، جرفها الموج الراكد البطيء ، نظراته تتوه ، ضالة ، بلا دليل ، خمسون تبدو كالباب الصغير الذي يتوسط العربة الاخيرة من قطار راحل ، راحل ساعة مغيب ، استحالة النفاذ بالجسم من أبواب السماء إلا بسلطان ، أي سلطان يعيد إليه ما انقضى ، ضاعوا إلى أبد لن يدركه ، لكم يبدو العالم من كلام فؤاد فسيحا متسع الاركان ، لو مشى في خط مستقيم ، لا يحيد ، تتبدل البلاد ، تتلون الوجوه ، اللغات ، تتغير ، البحار كلها أسرار ومخاوف ، في جزر نائية ناس يأكلون الناس ، كلها أعاصير ، تيارات ، أمواج كالجبال ، البراكين الخامدة تجذب الحديد فيضيع المسافرون ، من ينجو ، يعيش لا يموت أبد الدهر ، ثم الاحساس بالبعد السحيق عن الوطن . في المطارات البعيدة ، عاوده الألم المخيف ، أسى عجوز ، طويل المخالب ، بشع الملامح ، يفقد الحامل جنينها ، خمسون ضاعت ، ماتت في الابراهيمية ، كانت أمامه الفرصة ليبدأ الرحلة عبر الخط المستقيم ،

كان يمكنه السفر في كل إجازة صيف ، يرى جزءا من الدنيا ، ثم يرجع ، لم ينتبه ، لم يفق ، الآن ، الليلة ، ربما نام ، ولا يفتح عينيه ، لا يرى العالم ابدا ، سملوط حتى . انطلق يجري ، لطمه الحزن ، الخوف ، الألم ، على مؤخرة رأسه ، كاد يرمي نفسه في المصرف العطن ، يدق رأسه في حجارة الطريق ، ضاعت خمسون ، رغاوي صابون ذابت في نهر من السنين والشهور ، المتلاحقة ، أين اللحاق بها؟ وعندما سألته أمه أن يسقيها ، غمره رعب عفي . .

* * *

فؤاد :

قبل أول رحيل ، كنت ألف مصر ، العادة اسكندرية للمصيف ، أسوان للشتاء أما أنا فسافرت في عربة لاندروفر إلى واحات الفرافرة والجويز بالقيظ والسخونة ، مرسى مطروح لا يطأها في الشتاء غريب ، رحت إليها في الصقيع ، وقفت عند صخور البحر ، الموج عال يطاول الجبال ، أخضر في لون الزرع المثقل بالثلوج والريم ، صدقني يا أستاذ عدلي ، ذبت ، تلاشيت ضعت في السماء الوسيعة والصخر الاجرد ، في غروب طالت وقفتي ، الليل غير الليل في أي مكان ، فجأة خفت ، ربما طلع علي مخلوق غريب يشدني ويرميني في القاع ، لن ينجدني أحد ، لن يسمعني أحد ، ربما ينفصل الجزء الذي أقف عليه ، يهوي في الفراغ السحيق ، درت ، جريت ، زعقت بأعلى صوتي ، لم يجاوبني أحد ، اختلط صوتي بالريح والموج والصخر والبيوت الصغيرة المغلقة والعشش الخالية ، ليس خوفا

بالضبط ما فاجأني، إنما فرحة ورغبة في البكاء، وأمنية لو احتويت البحر داخلي وطحنت الصخر في جوفي، أما الطريق فخال مهجور من كل إنسان وحيوان، حتى ظننت نفسي في أحد الأيام الأولى للدنيا، فجر الخلقة، وأنني وحيد، يتيم، لا أحد في الكون كله، العالم كله، غيري..

* * *

يغرق بناء المحطة في بخار الظهيرة الزجاجي، الدهشة تزم شفتيه، منذ لحظات رأى صلعة الناظر، نفر من صوته، ثلاثون سنة، تدور الأرض ملايين الدورات، في كل دورة يرى الناظر، يعايشه أكثر مما يعايش أمه، ألم يكتشف صلعته إلا اليوم؟ سأله الرجل، هل يؤلمه شيء؟ هز رأسه، عبر الفناء المتسع إلى الطريق، الترعة لا تتحرك، فوق الرصيف بنات الفصل الثانوي، ينقلهن القطار إلى القرى، اطسا، البرجاية، قلوصنا، زي المدرسة البسيط، البلوزة البيضاء، الجونلة الرمادية، نقط الحبر الجافة فوق الثياب، ثمار التفاح الخضراء التي لم يدركها العطن، القضبان تشع الصهد والوحدة، رائحة المازوت المتساقط بين الفلنكات، يعرف عدد الكتب الخشبية المتراصة في وضع أفقي ثابت، من أول الرصيف حتى نهاية الجسر، ثلاثة وتسعون، عندما جاء العمال من شهور ونزعوا الفلنكات القديمة، حولوا مرور القطارات إلى اتجاه واحد، بعد أن أتموا عملهم، أحصى الكتل الخشبية، ثلاثة وتسعون، لم تزد أو تنقص، مع أن المسافات الفاصلة بينهم خيل إليه أنها ضاقت

قليلا، جلس مواجها البنات، عند أقصى الرصيف عجوز أمامها سلة جبن، ما يراه حلم، المبنى القديم، سمالوط، همس البنات، قصر الشريعي الراسخ في مواجهة المحطة، يرى كل ما حوله من خلال حاجز زجاجي شفاف، عاش اللحظة من قبل، لكن، أين، متى؟ رأى وجه البنت الحلوة العفية، متى أين؟ الوجع يمد رأسه المدببة في شرايين قلبه، كتلة اللحم المنتفضة أبدا، خمسون سنة تدفع الدم، تستقبل الدم، ترتجف، ترتعش، كيف؟ حتى البيوت على الناحية الأخرى، العربات المندفعة فوق اسفلت الطريق، ماء الترعة المدوم البطيء كالزمن، أكوام التراب والورق على جانبي الطريق، سعف النخيل الاجرب المطرود الساقط من العلو الشاهق، العربات، حقول الطرف الآخر، الاسى الذي يبعثه فيه منظر العجوز، ضحك البنات، ينخر مرارته، في اليابان نام فؤاد مع بنت كاليمامة، يا سلام يا أستاذ عدلي، أي صدر، جامد كالبرتقال، ناعم أيضا كالحرير، لما مر بأعمارهن لم يعرف البنات، هل مر عمره فعلا بالعام السادس، السابع، التاسع عشر، أبدا، ادمي غيره، شخص آخر، عمره يبدأ بالخمسين، المولود ينسى الزمن الذي قضاه في الرحم، هو لم يعرف الخمسين المنقضية، لم تخفق كتلة اللحم الحمراء المنكمشة في صدره لواحدة كصاحبة الشعر الناعم، تضحك بليونة، تهمس، التهبت أعصابه، ما الذي حال بين الغريب الذي عاش عمره البعيد وبين اقترانه بأنثى، الأيام توالت، ناعمة، انسيال الماء من بين الاصابع، دائما إذا اقترب منهن أو جلس إلى واحدة منهن ترتعش أطرافه، لا يدري إلى أي ناحية يوجه نظراته، كيف يختار كلمات الحديث

إليهنَ، يتمنى لو انتهى الموقف بسرعة، لو اختلى بواحدة منهن، لن يعرف، كيف يتصرف، ماذا يقول، حتما يفشل، آه لو اقترن الغريب البعيد بامرأة، لو تزوج عند مروره بالعام الرابع، الخامس، السادس والعشرين، دفء الليالي، الجسد القريب، أي وقت يطلبه، الخروج من السينما الوحيدة ليلة الخميس، ظل الأنثى على الرصيف، متابعته لتفاصيل التصرفات الصغيرة لأنثى تعيش معه أربعة وعشرين ساعة، الضحكات الصغيرة، طريقة أكلها، تقلبها في الفراش، شدها الغطاء، أي همس متبادل والليل فوقها، لحظات الصفاء بينها، حديثها إليه عند خروجه، البيت يحتاج أرز وبصل، هات معك بطيخ، بعد رجوعك من المدرسة نروح نزور بيت أبو الغيط، امرأته وصلت من مصر، آه لو أنها تشبه الجالسة أمامه، متران، خطوتان، ثلاث بنات، لو يلمس لمسة، الحلوة طويلة الشعر، القصيرة الأخرى، تعرف ما يفكر فيه. يتشرب همس الأنوثة، نعومة النفس، حتما سيفعل هذا رجل ما، كل منهن سيحتضنها، يخور فوقها رجل، إذ يرى امرأة حلوة جدا، بيضاء فاتنة، غريبة أو تركب قطارا عابرا. يقول، ليس معقولا أن هذه تعتصر وتحضن وتقبل، أبدا لا يلمسها رجل، عندما تميل الحلوة منهن إلى صاحبها تبدو كأنها تستجديه الكلام، يصيح دهشا، أما هو.. هو، البنات يتهامسن، يتغامزن، كلماتهن عنه، صرير عجلات الديزل الحاد، اقترب منهن، الأخيرة، دارت قريبة منه جدا، من ثيابها تفوح رائحة جلد الانثى، تعجبت، اختفت، عاد وجهها يطل من

النافذة، عيناه تغرقانها، تشدانها إليه، تمسكان بها، لو يبدأ عمره من جديد، في مكان قصي، لو بدأ الرحيل، ربما لاقى في المكان ما يمضي من زمن، العمر لم يتلاش، حتما موجود في موضع ما، مجهول لا يصله بشر، مقبرة الأفيال، ربما جوف بركان خامد، أحشاء غابة وحشية، قمة جبل، يصل إليه، يبحث أعماقا من عمره، لن يطول البحث، يعثر عليه، يسترد ما فات، اللحظات المنقضية، يغير كما يشاء، يعرف الاخطاء التي مرت به فينفيها تماما، راح وجاء بجوار العربة المتسخة، قطبت البنت حاجبيها، غدا يقفن في الفناء ويقلن، الاستاذ عدلي نظر إلينا بطريقة غريبة، الاستاذ.. صرير العجلات، صفارة المحلج الذئبية تعوي، ساعة جيبه الكبيرة تمضي في اصرار مخيف، سير جلدي لماكينة وابور الطحين لا يعمل إلا إذا ذاق دم صبي، فؤاد لن ينهي عمله قبل ساعة، ساعة، ساعتان ثلاث مضت، ما هذا؟ ما المعنى؟ الديزل نقطة بعيدة تسد القضبان، الهواء يحرك الاعشاب الكثيفة على جانبي القضبان الحديدية، الصمت يتمدد في الهواء، ساد في الزوايا، حتى سمع تكتكات الساعة...

* * *

فؤاد:

لا أعرف عددهن بالضبط، لكن كل بلدة مررت بها تقريبا عرفت فيها امرأة، الحب في البلاد البعيدة أجمل حيث لا يعرفك أحد وتحيطك حرية من نوع غريب، في الباخرة التي دارت بي حول الساحل الافريقي، كنت أغسل الصحون طوال اليوم، وأنام في

المساء فوق السطح، يا سلام استاذ عدلي لو كنت معي، يا سلام.. لكن ما علينا، عندما خلفنا ساحل العاج، استمرت المركب تسير ساعات بقرب الساحل، أحيانا تغيب عنه فلا نرى غير الموج العالي كالجبال، الضخامة والقوة، الطول والعرض كله يفقد هيبته وقوته أمام البحر، ولما استحال النوم فوق السطح المبلل نزلت إلى الممرات القريبة من قمرات الدرجة الثانية، رأيتها تخرج مرة أو مرتين، اسبانية سمراء، لون أسمر فيه حمرة خفيفة، تسافر وحدها، رأيتها يا أستاذ عدلي وقلت لنفسي، إن لم أعرفها، إن لم يلتصق لحمي بلحمها كما يلتصق سلم السفينة برصيف الميناء، فلا سلام يحوط رحلتنا ولا أمان، التهبت عروقي، لم أنم، عندما اقتربت منها وكلمتها، بدا الساحل الافريقي من النافذة المستديرة وزجاجها السميك، تبلله المياه والملح، ذهب العصر، والغروب في البحر، شيء خرافي، ياه.. لم أعرف في أي موضع نحن أمام افريقيا، كم المسافة التي تفصلني عن بيتي في اسكندرية؟ لم أذكر، أي الأشياء تفعل أمي؟ أختي، أبي، بل ساءلت نفسي والمركب تميل، هل هناك عالم فعلا؟ هل توجد أرض يابسة؟ صدقني يا أستاذ عدلي لم نخرج يومين كاملين إلا لنأكل، الموج والغربة والرحيل واحتواء أنثى لا تعرفها من قبل، ولدت أنا وهي من أجل هذه اللحظات، لن يروح هذا من عقلي طوال عمري، يا سلام.. اللحظات الحلوة تنتهي دائما، تعرف ساعات أقول لنفسي، ليس معقولا أن كل لحظة تفنى، وإلا فنحن نضيع، ننتهي، نموت كل لحظة، من يومين قلت لي أن

عمرك المنقضي موجود في حيز، مكان ما، وأنا أقول، لو درنا، لو بحثنا جيدا، حتما نلاقي ما فات.. المهم.. هل عرفت زنجيات في حياتك..

* * *

السيد عدلي..

ظل رمادي، يمشي في شوارع فسيحة يقسمها رصيف مرصع بحجارة صغيرة، تظلله أشجار تطرح ثمارا كالرؤوس الآدمية، الناس عيونهم واسعة، كلامهم همهمات، الوجوه مريحة، الطفل بعد رضع اللبن، جبال عالية زرقاء بعيدة، لها عيون وآذان، السيد عدلي لا يرحل عبر المكان فقط إنما يعبر الزمان، يتوقف عند أي عصر يشاء، أسواق فارس المزدحمة، يتأمل الغريب فيها، النواح في كربلاء، الرجال يشقون جباههم، يرحل متخفيا مع جيوش الغزو البربرية، مراكب تفرد قلوعهاالضخمة تبتعد عن شواطىء صخرية، رقصات مجنونة، السيد عدلي، يعود إلى أزمان مقبلة، أطراف الكون تقاربت، البيوت خاوية، صامتة، المدن نظيفة، في الشوارع، واجهات المباني، ساعات كبيرة، ملونة الارقام والعقارب، اذ يسود الصمت يمتلىء بتكتكات التروس الصغيرة..

* * *

لحظة المغيب، انزاح الغبار فجأة، بدأت نسمات باردة فيها رائحة برتقال، ازدحم الكورنيش المحاذي للترعة، أطل من النافذة العريضة، رأى الهواء الرقراق في الفراغ، قال، البلدة كلها خرجت

تشم الليل والهواء، أطل فؤاد، قال، إن الانسان مهما عاش في أي بلد تفوقه أشياء، ولحظة رحيله الاخيرة يكتشف أمورا كثيرة وصغيرة يتعجب، كيف لم يدركها قبل الآن؟.

ارتعش فمه، أزاح نظارته، بصوته ورم، سأل..

هل أغلقت الحقيبة الكبيرة؟

قال فؤاد لم أنس لكن ساعدني في قفل الصغرى..

اضطر عدلي إلى الجلوس فوقها حتى يتمكنا من اغلاق قفلها، بدأ يلحظ حركة فؤاد، فرحته وهو يجمع حاجياته، يسأل.. هل نسينا القلم الحبر؟ وماكينة الحلاقة، كتب السياحة، والمجلات المصورة خذها يا أستاذ عدلي.. لن أحتاج إليها.. سأحصل على غيرها.

خرجا من باب المصنع، سأل الخفير..

خلاص يا بك؟

وخزته الكلمة، آه لو أن كلمات الخفير قيلت له هو، حاول أن يعد البلاط المضلع في رصيف الكورنيش، فؤاد يطير، يرحل دائما، أما هو فباق هنا، طاف فوق ماء الترعة الميت، جسمه نحيل، مليء بالعظام، لم يتأمل نفسه في مرآة، فكه بارز، عيناه ضيقتان، أنفه رفيع، حاد.. تمدد، أتت أمه أنينا خافتا، الوجع الليلي.

يا بني كل لقمة

سكت.. قال..

فؤاد سيسافر..

بالسلامة يا حبيبي..

وما الذي يهمها؟ سفره لا يعني شيئا بالنسبة لها، لم تره، لم تخرج من سمالوط عمرها، الساعة تقارب منتصف الليل، ما اسم لحظة انشطار الليل؟ إلى أي يوم تنتمي، الاحد الراحل أو الاثنين المقبل، ثم، ثم، ثم يجيء الأحد، اليوم أحد، غدا أحد، عمره أحد طويل، ثم في لحظة معينة، ثانية بعينها تتخلل الاحد الطويل، تمنت أمه، فزع، الازيز الخافت، تغمض عينيها، لا تفتحها ثم الاحد.. الاحد، يخلو العالم منه، تنطلق القطارات، تجري العربات، تهاجر السفن، تضحك النساء، يجيء أطفال، في عالم هو لا يتنفس هواءه، برق أمامه ضوء، طلقة، تحسس الارض بقدميه، أطل على أمه، تنام، استدار مطمئنا إلى الصالة، عندما رأى غطاءها يرتفع وينزل بطيئا، رتيبا، سيكون وحيدا في البيت الخاوي، ينطبق جفناه يتلاشى فوق سريره، لا يدري أحد. راح، جاء.

الليل يسيل، مسود اللون، عندما صرت عجلات القطار، فارقت آخر العربات رصيف المحطة؛ ابتسم فؤاد، التوت العربات فجأة مع انحناء القضبان، ضاع فؤاد، ذهب يعيش عمره، لحظة، حقد فيها عليه، لولاه، لكن من يدري.. ربما ضحك عليه طوال المدة التي عاشها مديرا للمصنع الصغير في البلدة، كيف لف هذه البلاد كلها وعمره لم يتجاوز الثلاثين، من أين له بالنقود؟ ربما يقنع نفسه أنه رأى العالم، ولو.. فتح عينيه على الدنيا، لا بد أن يلحقه،

يتجاوزه ، لن يقف ، لن يمر عليه ليل ، عبر القضبان .

الآن ينطلق القطار ، سهم معدني فؤاد يركب مقدمته ، مطاي ، مغاغة ، الفشن ، الجيزة ، اسكندرية ، روما ، برلين ، باريس ، لندن ، مونتريال ، الاسكا ، هونولولو ، توقف فوق الفلنكات الخشبية الغليظة .. في الضوء الضعيف نظر في ساعة جيبه الكبيرة ، التروس تتكتك ، اصرار عجيب ، مخيف ، الثانية تدرك الأخرى ، تجيء الدقائق ، الساعات ، في كل جزء من الثانية تطوي العجلات مسافة .. فوق نفس القضيب الممتد في الليل ، يقف هنا .. يرحل هناك . قلب دفتر المواعيد الصغير ، أصابعه مرتعشة ، الضوء خافت واهن ، قرب عينيه من الحروف الصغيرة الدقيقة وعلامات القطارات ، بحثا عن الاكسبريس رقم « ٨٧ » وأين وصل بالضبط في هذه اللحظة تماما ، الآن .. الآن ..

١٩٧٠

خراب الجسور

« .. عندما سمعت صوت أختي « سنوات » . على الطرف الآخر من التليفون تعجبت ، تساءلت عما جرى ، لا تحدثني هنا إطلاقاً ، تشير الساعة إلى تجاوز الثالثة والنصف ، بدا صوتها بعيداً مما أجهدني في إلتقاط الألفاظ ..

– من أي مكان تتحدثين؟؟

– تحت البيت .

– بيتنا؟؟

– طبعاً .. من الاجزخانة .. باقي لك وقت طويل؟؟

– حوالي أربع ساعات .. ثم أذهب إلى الكلية ..

– هل جرى شيء؟؟ إرفعي صوتك ..

– أنا مصرة نأكل معاً .. أتمنى الحديث إليك .. من مدة كبيرة لم نقعد على مائدة واحدة ..

– لا بد فيه حاجة .

– أبداً والله .. نفسي أقعد واتكلم معك ..

– لكن ...

- ولا يهمك.. أقضي شغلك ومها تأخرت.. أنا منتظرة..

لم أرها أثناء الحديث، لكن صوتها، تدفق الكلمات، أوحيا بالبهجة التي تزحم روحها، رأيتها تقف، تحيط بوق السماعة بيدها، صوتها خفيض، تشب على أطراف قدميها، تقطب عينيها إذ يرق حسها. «.. نفسي أقعد واتكلم معك..» تختلف مواعيدنا، تضمر أوقات لقائنا، تقل مرات أحاديثنا، أول النهار لا ألمح إلا آثار عملها المبكر في البيت، نظافة الصالة، إفطاري فوق الصينية الخضراء المنقوشة بورود حمراء أطيل تأملها ومتابعة فروعها المتشابكة، طبق فول، بيضة مسلوقة، ملح ناعم مخلوط بفلفل، آكل بسرعة، لا أنظف الأطباق. «سنوات» تنفض الغبار عن المكتب، تلملم الملابس، تخصص يوم الثلاثاء للغسيل، تنهي كل شيء قبل وصولي، أعود متعباً، يضج النهار في رأسي، زحام عربات وعرق وبحث في أدغال القواميس عن معانٍ مبهمة، ألوذ بفراشي الضيق في ساعة متأخرة أسمع خطواتها الخفيفة، تلامس مشاية اللوف في الطرقة، تطل عليّ، تقف بباب حجرتي، عيناي مفتوحتان، لا أتحرك، لا أنطق حرفاً، أخبىء يقظتي، أضيق بحروف خفيفة قد نتبادلها، تصغي، ربما إلى وقع أنفاسي، تتراجع على مهل، مخلفة همساً من رائحتها في الغرفة، استعدت ملامح صوتها، «نفسي أقعد واتكلم.....» أي مناسبة أو حدث؟؟ في زحام حياتنا تفقد المناسبات، أجهل يوم ميلادها، أعرف إبريل لكنني لا أدري اليوم، لا نتبادل الهدايا، توقفت عن ترجمة البحث، مكاتب الصاج

مصفوفة أمامي، في السقف تدور المروحة الكبيرة على مهل، أي جدوى لهذه الدورات؟؟ الحر يمتد في الفراغ، استعدت هدوء البيت، صورة أمي وأبي تطل علينا من إطار كبير، طرقت صاج المكتب بقلمي، «.. نفسي أقعد واتكلم.....»

- ٢ -

بدا الليل غطاء كثيفاً من غربة وإرهاق، أرى ذرات الفراغ، عاط بوق عياطاً متصلاً انقطع فجأة، أي أمور شغلتني، أضاعت حديث «سنوات» مني، أي واقعة بالتحديد؟؟ خروجي من المكتب، تحسس جيوبي بحثاً عن دفتر تليفوناتي، ضيقي وعودتي إلى المكتب، إخراج ما في الأدراج، فض المظاريف، ثم يبرق خاطر كطلقة أفتح الحقيبة وأجده، أقلب وريقاته، أضعه في جيب قميصي، كيف نسيت ما قالته؟؟ بعد المحاضرة الثانية، وقوفنا في الطرقة أمام المدرجات، مجيء مجدي يقضب رغيفاً صغيراً سألته، من أين؟؟ أشار إلى الخارج، اعتبرت هذا عشاء يكفيني.. «سنوات» في عينيها وحشة انتظار، تقف أمام المطبخ، تمسك خصرها بيديها.

- قم واغسل وجهك.. أعددت ما يسرك.. ولم أنس السلطة الخضراء.. ينتصف الليل بعد قليل، أقاوم ثقل جفوني، لا أدري ما الذي يحرك «سنوات» بخفة هكذا؟؟ ربما تخبىء مفاجأة. عضضت شفتي، استعدت هزهزات الأوتوبيس، تعلقت بعينين واسعتين تنظراني من فوق أحد مقاعد الدرجة الأولى، نافذتان شفافتان، يبرقان يرفرفان على عالم فيه راحة وأمانٍ ووعود غامضة بالوصول،

اتخذت موقعاً مناسباً يمكنني الإطلال عليها، أحياناً تحولهما صاحبتهما إلى الطريق، كأنها تعرفني، وتعرف « سنوات »، من أين جئت، وإلى أين؟؟ أزددت قرباً، في انسيال النظرات نبل أسطوري، ألغاز حضارة بعيدة، تمنيت النزول وراءها، أقف على سرها، أفك رموزها، تابعت نزولها، اعتذار خفي بكل كياني، المحاضرة بدأت فعلا، هل سأراها ثانية في أي مكان، متى، تقول « سنوات »:

– أنظر هذه المجلة الانجليزية.. منذ شهور قررت أن أعد لك هذه الاطباق.. لن تأكلها مرة واحدة طبعاً.. إنما سأعدها لك صنفاً صنفاً وكلما سمح مصروف البيت.. مد يدك.. تذوق..

قضمت نصف أصبع كفتة..

– الطبق كأنه تجسد خارج الصفحة..

– ولكن..

مدت يدها، أصبعها يلامس شفتي، حركة تفيض أنوثة ورقة، عاودتني زرقاء العينين، زرقة حقيقية، نغمية، راودني يقين أنني سأراها في الحلم..

– لا تخشى المصاريف.. تكاليف الطعام اليوم بدعوة مني.. يا أخي العظيم.. عندي بقية نقودي من جمعية قبضتها منذ شهور.. أنت مدعو الليلة إلى العشاء..

يغدق من عينيها حنو عظيم علي، الخطوة الطبيعية أن أقوم، أحتضنها أقبلها، ثقل يحوشني، عواطفنا لا نعبر عنها بالقبلات، حتى

مرات سفري النادرة أكتفي منها بملامسة اليد، لا نلوح بالأيدي، ينعقد اللعاب في فمي، يبدو الطعام شهياً، لكن.. هل أتساءل عن امكانية بقاء الطعام إلى الغد، تبدو مستعدة لحديث طويل بعد العشاء، « نفسي أقعد وأتكلم.. » أود اللجوء إلى فراشي في لحظة، قبل خطوها إلى الداخل.. ناديت..

– سنوات...

التفتت...

– ٣ –

لمحتها...

لم يخني نظري، ولست مخطئاً، عند نهاية الكوبري تتدفق المركبات، يمكنني القفز من العربة قبل المحطة، أستدير، ألحقها، أتأكد مما رأيته، يبدو النيل، أمواجه تمضي في وثبات لينة، النهار لم ينتصف بعد، لم تمض دقيقتان، لا تكفيان للعبور إلى الطرف الآخر، إذن تحركا في هذا الاتجاه، بالتأكيد لا تتأبط ذراعه، إنما تمشي بجواره تماماً، يلوح بيده، هي صامتة لكن ملامح وجهها تصل الحديث بينهما، أدركته تعبيرات وجهها في رؤيتي العابرة، بخطى تقترب من الجري، حاولت دخول الحديقة.. صدني حارس أسمر اللون..

– ممنوع.. ممنوع يا أستاذ..

لم أجادله، لا بد أنهما اتجها إلى الطريق المحاذي للنيل، ثلاث

درجات بها تقترب الارض من النيل، مددت البصر، بلاط مربع كبير، التراب مخلوط بزهور جافة تساقطت، رائحة نبات مهروس، تموت هنا أصوات العربات، الطريق قريب، لكن ثمة هدوء متراخ في الفراغ، لا أحد هنا، كيف.. في هذه الساعة من النهار، حتى العشاق نأوا، وباعة عقود الفل، والترمس، والزهور، واللب، ومتكدري الخاطر المعتصمين بهدأة النيل، تلفت، يمتد الكوبري كقلعة ضخمة من الصلب والاسفلت، دعائمه تطعن بطن النهر، تتحرك العربات بلا صوت يدرك هنا، كأن حاجزاً غير مرئي يجمد الاصوات، يحول المنطوق إلى صامت، أين ذهبا، تأخذني رغبة حادة لأراها الآن، أمد لها يداً، أتعرف إليه، أطلب منها أن تجيب، هل تحبه هل تحبه فعلا؟ أسأله، هل يحبها، أمسك أيديهما، أميل، أقبلها، أنتحي بها ركناً، أصغي إلى كل ما تخبئه، « .. نفسي أقعد وأتكلم معك.. » أخفف عنها، أزيح ثقلا تنوء به، ربما دعوتها إلى عصير فاكهة في الكازينو القريب، نمشي ثلاثتنا، ياه.. لم نخرج أبداً للنزهة منذ وقت بعيد، لم ندخل سينما، لم نزر أحد أقاربنا معاً، لا أعرف أسماء صاحباتها، رأيت بعضهن في البيت، بتحفظ صافحتهن، تجهل أصدقائي، زملائي في قسم الدراسات العليا، لا أتساءل عن الاماكن التي أتردد عليها، أبداً.. سأصارحها الآن بضرورة اقترابنا، لن أمضي إلى الكلية لكن الطريق موحش، الزحام قريب والخلاء هنا عجيب. عيون النيل الخفية تنظرني، ريح خفيفة تحرك أوراق الشجر، ربما رأيت اسطورية العينين الآن، سأتقدم منها، أحدثها عن

« سنوات »، نبحث عنها معاً، فوق النهر يمضي مركب شراعي متمهلا، لم ألمح فوقه إنساناً، لا أدري أين ذهبت سنوات. أين صاحبها، أين تقيم زرقاء العينين، أين تخفي أسرارها، يهبط قلبي بمقدار قبضة يد، ربما تركب قطاراً يحملها إلى مدينة أخرى، ربما سافرت إلى بلدة بعيدة لن أذهب إليها قط، تحادث غرباء وتناجي غرباء، ربما.. ربما رحلت رحيلا أبدياً، ثلاثة أيام مضت على رؤيتها، ما يمكن وقوعه خلالها كثير، أما سنوات، أين وكأنني ألمحها، لكم أود الاصغاء إلى ما تكنه الآن، أثق في رؤيتها، أدركني عجز وناء بي أسى.

- سنوات.. سنوات...

رأيتها تقف بالباب، أنهيت اضطجاعي..

- تعالى..

أومأت مرحة، جلست عند طرف السرير، تبسط راحتيها، تضمها، تدسها بين ساقيها..

- سأعطلك..
- أبداً..
- عموماً قررت الليلة ألا أنام حتى أراك..
- خيراً..

بدلال هزت رأسها..

- أبداً.. أراك..

أطرقت، على مهل تقول:

- وأتكلم معك..

تتأهب للافضاء بما تود البوح به. في هذه اللحظة أدركت أنني نسيت تماماً ملامح زرقاء العينين، اختلطت بالزحام، وأشجار حديقة الاورمان، والخضرة الخصبة، لكنني لم أفتقد خلاصة المعاني، أين ذهبا إذن؟ كيف ضاعا مني؟ رأيت ألا أفاتحها في الأمر الليلة، ربما امتد الحديث وتشعب الموضوع، لست متأهباً للاستفسار والمناقشة، جاءت بنفسها، هل لمحتني أثناء بحثي عنها، منذ أيام أخفت ضيقها، حتى الآن لم نأكل معاً، أول أمس، قالت إنها لن تدع يوم الجمعة يفلت، ستغلق الباب، لن تسمح لي بالخروج.

- هل أعطلك؟؟

- أبداً.. أبداً..

تعض شفتها السفلى، بحركة خاطفة تتربع فوق السرير، نظراتها جانبية ضاحكة، لم أعتد هذا الخجل الانثوي، عندما أنظر إلى صورها أثناء الطفولة، لا أتعرف فيها على مقدمات هذه الانثى التي تفيض حيوية. تستعد للحديث.

- تعرف؟

لحظة نطق الكلمة، بلا قصد، نظرت ساعة معصمي، تمضي العقارب إلى الثانية صباحاً، قامت..

- واضح أنني أعطلك..

بريق الحماسة خبا في عينيها، الالفاظ صرعت عند طرف لسانها، تدلت يداها، قطعت حبالا تصل الاشرعة، مزقت وصلا كاد يتم..

- أبداً.. إنني أسمعك..

عبثاً تلتئم الضفاف، أعطبت وداً رائقاً في عينيها..

- أعرف مشاغلك.. لن أعطلك..

في صوتها خيبة من أوشك على بلوغ المراسي، ثم اكتشف وعورة القيعان، نتوءات الصخر الحجري، فعلا سألقي راحتي بمفردي قبلك، أستدعي حوادث يومي، أرقب دولاب الكتب في العتمة، قبل خروجها صحت:

- ياه.. كدت أنسى.. خيل لي أنني رأيتك فوق كوبري قصر النيل عند الظهر..

- أنا؟؟ أبداً.. أنا لم أفارق عملي اليوم كله.. يمكنك أن..

تبدو فرحة قليلا بتلميحي، صدور اهتمام من جانبي، ربما استعادت حماستها، تعود الى الجلوس، تحدثني عما تكتم، أبداً، الصدأ يخنق البريق، تثاءبت، أغدقت حنوا على صوتي..

- أبداً يا سنوات.. يكفي قولك هذا.. خيل لي فقط.

لا أدري كم نمت؟ في هدأة الليل إذ يدركني قلق، أعود جنيناً أتلمس جدران الرحم، يثقلني همود الليل، بينما يعدو النهار في رأسي، أرى ما لم أتوقف عنده في يومي الراحل، أستعيد ملامح عجوز يمشي مرتجف الخطى، يوشك أن يقع، بعد أيام أدركت

هدفه، فتاة سمراء صغيرة ترتدي زي المدارس الثانوية، تطل من حقيبتها كراسات ومسطرة وعلبة ألوان مائية، يقترب حتى يحاذيها، يبتعد ليعود من جديد لحظة وصول أتوبيس، تنتشر الحركة بين الواقفين، يزداد قرباً منها، اليوم سمعته يلقي تحية مقتضبة خجولة « صباح الخير ». أسرع مختفياً، تنظر الفتاة إلى الامام، لا يعنيها ما يدور حولها، الآن.. تطل زرقاء العينين، السمات ضائعة، لكن الجوهر لم يفتقد، تنظرني من إطار باهت قديم، لحن غير منطوق يأتي من جزر بعيدة، لغز من حضارة قديمة لم يحل، أضعتها بسهولة، في المكتب أثقلني وجودها داخلي، قام جلال زميلي، اقترب مني، شكا إلي ألماً في كليتيه، قلت اذهب إلى الطبيب لعمل أشعة، وددت لو ابتعد عني، عدت باحثاً عن معنى العينين، أمسك يدي، لامست جنبه الايسر، ضغط أصابعي، هز رأسه، ليست هي السبب، قلت ماذا إذن؟ مال إلي هامساً، قال إنه منذ ليلتين فتح النافذة، لا عمارات أمامه، يطل على خلاء وسيع، أصر أن ينام مع امرأته في ليلة الصيف الحارة هذه، تمدد بجوارها حوالي العاشرة والربع بالضبط، يذكر الوقت تماماً، التحما، التصقا، احتكا، مثيرات ومقدمات، كم استغرق؟ خمس ساعات كاملة، حتى كادت تجن، وعندما صرخت من اللذة كان العرق يبلله تماماً، أثناء الحديث صوته يتمهل، يبدو بطيئاً يبتلع لعابه، أصغيت، يلقى متعة في قص التفاصيل، قال: بالتأكيد نسمة برد هي السبب، إذ حدث في حوالي الساعة الثالثة والنصف بعد استلقائه هامداً، أن هبت رقائق هواء

نفذت كالابر الرفيعة الى كليتيه. قلت يستحسن الاسراع بالعلاج، البرد في هذه المناطق وعر وخطر، لا بد من الذهاب الى طبيب، قام. بعد ساعات عاد إلي هامساً، خمس ساعات، أي والله حتى كدت أجن، راودني حنين الى أسرة وأطفال، أنثى في متناول اليد. لم أسأل « سنوات » عن أفكارها حول الزواج، الرجل الذي تنوي قضاء بقية عمرها معه، صورته في ذهنها، ربما أحد زملائها، لا أعرف واحداً منهم، لم أزرها في العمل مرة، غداً سأسألها عنهم، عن معارفها، غداً بعد عودتي سأوقظها لو وجدتها نائمة، نجلس معاً، نتبادل الضحكات، أمس كنت قاسياً، غليظ القلب، عندها ما تود قوله، لم أصغ، الآن.. يترامى من بعيد صوت قطار يعبر الخط الحديدي القريب، بدا الصوت مطاطاً كأنه لن ينتهي، في أويقات أرقي يثير فيَّ هذا الصوت حزناً، وذكرى أيام غائبات، أرهفت السمع. باب حجرة « سنوات » يفتح، التقط صريره الضئيل في نهاية الطرقة، تتجه إلى الدورة، لم تضيء المصباح، هل أقوم؟ أقفز أمامها فجأة بعد فتح بابي؟ دعابة من دعابات الزمن البعيد، في البداية ستبدي انزعاجاً لكنها تضحك، نتعانق، صوت ورق يمزق، ماذا تفعل « سنوات »؟ لم يغلق باب الدورة، واضح أنها تقف أمامه، أوراق تمزق قطعاً صغيرة، يبطء صوت التمزيق إذ يزداد سمك الورق فيصعب تقطيعه، تشد « السيفون » تتدفق المياه بسرعة عالية، اتخذت من طشيشها ستاراً لنزولي من السرير، أصغيت من خلف باب حجرتي، أي أمر يحدث؟ يد طويلة الاظافر خمشت

قلبي، تبكي « سنوات » بصوت عال، نشيجها يصلني واضحاً، أرى جسمها يهتز، تذرف دمعاً، حتى رأيتها تبكي؟؟ لحظة انزال « والدنا » غرفة الدفن، اندفاعها المفاجىء ونواحها الملتاع، أيدي الحريم تمتد إليها، تحوشها، تمنعها. « سنوات » الآن تبكي، جاءني صفير القطار من بعيد خيطاً متسلخاً متعباً، يذوب في الليل، عندما انتهى أحدث خواءً كونياً وحشياً صارماً يثقلني، لم أدر هل بقيت في الصالة؟ هل عادت الى غرفتها، هل تقف مكانها؟ تلملم ما تناثر من قصاصات لتعاود ابادتها، هل ارتابت في قيامي فأخرست نوحها، هل سمعتُ فعلا حركة قدميها وطشيش المياه، غداً.. أستفسر وأعرف..

- ٦ -

طلعت السلم بسرعة، لن أذهب الى الجامعة، سنخرج مقعدين الى الشرفة، نجلس معاً، لن تضايقنا الشمس، تواجه الآن جانب البيت الآخر، تدثرنا ظلال حانية، نأكل معاً، نتحدث، نتحدث، « نفسي أقعد واتكلم معك.. » لا أنسى هزة صوتها عبر الاسلاك، أصغي اليها، أقول وكأن حديثي يبدو عابراً، خيل لي في الليلة الماضية أنك قلقت، وأنك تبكين ».

- أهلا.. أي مفاجأة..

افتقد رائحة البيت في مثل هذا الوقت، عبير الاستقرار، رائحة الاثاث والغسيل وطعام طهي فعلا، حملت حقيبتي عني، لا تتحرك بخفة، افتقدت بهجتها، عندما نبدأ حديثنا ستتبدد

الوحشة.. باب حجرتها مفتوح.

- الله.. عندك ضيوف؟

- سهام صاحبتي.. تعال اعرفك بها.. تعال..

قامت سهام، تبدو خجلة.

أخي يا سهام..

فاجأني افتقاد زرقاء العينين، كريستالية النظرات، لحظات في مركبة عامة، عمر طويل من علاقة لم تتصل، طاقة قدر في سماء فسيحة، تبرق لحظة، لا يراها الا صافي القلب. فوق السرير مجموعة من صوري، تعرضها سنوات على صاحبتها..

- لا حديث لسنوات معنا إلا عنك. عرفناك قبل أن نراك..

- يا.. سنوات تبالغ..

تراجعت برأسها الى الوراء، تقول بجرأة تمحو آثار الخجل الاولى..

- أبداً.. يا سلام..

هل طالعتني عيناها فعلا؟ هل رأيت « سنوات » فوق كوبري قصر النيل » تشب على أطراف أصابعها، تعاودها سعادة، تود لو بقيت معها، عدت الى الصالة، تنفذ رائحة البيض المقلي. قالت إنها لم تعرف نيتي في العودة مبكراً، لم أقل أنني رغبت في الحديث معها، أسألها وتجيب، قالت إنها لم تشتر بسطرمة لكنها تظن البيض

والجبنة كافيين. عادت إلى سهام، سمعتها تقول أنه يرهق نفسه كثيراً، يخرج من مكتب الترجمة الى الكلية، يواظب على المحاضرات، قالت أنه لن يهدأ حتى يحصل على الدكتوراه بعد الماجستير، قالت بصوت خفيض، أوقفت مضغ اللقيمات، أن أخاها مثابر، قالت سهام كلاماً لم أتبينه، ضحكت سنوات، عاودني الصوت خفيضاً، تتوالى دقات هاون نحاس من الطابق العلوي، خطر لي القيام والزعيق مطالباً بالكف، الوقت عصر، البعض يغفو من عناء. سيبدو هذا منفراً، عادت سنوات تضحك بهدوء ضحكاً رائقاً تذكرت بكاءها ليلة أمس. بدا قضاء العصر في البيت مقبضاً، نظرت ساعتي، يمكنني لحاق المحاضرات.

- ٧ -

يبدو الحديث مصحوباً بصدى، تنثال الرؤيا، تقول سنوات أنها ستدعوني ليلة ظهور النتيجة، سترتدي فستاناً لامعاً، أبيض محلّى بلآلىء صغيرة، دقيق كإيماءة رأس، تتأبط ذراعي، ندخل معاً، نذهب بعد العشاء الى مسرح أو سينما، سكتت لحظة ضئيلة كثقب إبرة، في بريق البهجة ألمح الأسى، في تدفق الألفاظ أرى تعثر المعاني واختناقها، شيء ما لا أقدر الامساك به، يدفع مرارة مقطرة الى ركني عينيها، كأنها أهينت منذ قليل ثم كتمت ما حاق بها، فجأة سألتني، ألا تفكر في السفر؟؟ قلت، إلى أين؟؟ قالت الى بلاد الدنيا، رأيت رحيلنا معاً، ركوبنا سفينة لنرى ونتعرف اليهم، نقيم العلاقات ونكتب العناوين، نناقش الركاب في القطارات، اذ

يحاصرنا البرد في غرفتنا الصغيرة، بفندق قديم، نستعيد طفولتنا، ملامح أيامنا الضائعة، نذكر حديث والدنا عن استانبول، رحل اليها في شبابه أثناء عمله مدرساً، سنوات تذكر بريق عينيه عند حديثه عما رآه، ضفاف البوسفور، مآذن استانبول، حواريها الضيقة، لكنة الآذان الغريبة، قالت، نبدأ باستانبول، ما رأيك..؟؟ أومأت موافقاً، رفست ذراعاً ممدودة الى أعلى، لندخر المال، لن أضايقك، ابتسمت، لو رأيتك معجباً بفتاة ما فلن أقف حائلا أمامك، يمكنك تجاهل وجودي تماماً، وكأنني لا أشغل حتى جزءاً من الفراغ.. أبداً..

- ٨ -

يرسل المصباح ضوءاً واهناً كالوحدة، البيوت مصلوبة في سواد الليل، أربعة رجال يقفون أمام البيت، أبطأت خطاي، طفلة صغيرة تلمحني، تصرخ..

- أبلة سنوات.. أبلة سنوات..

أحاطت ساقي بيديها، إبنة عم محمد البواب، تقدموا، رأيت الشارع، بلاطه المضلع، الهواء في الفراغ، رائحة غسيل منشور، رأيت أحد الرجال مرتدياً حلة زرقاء بصفين من الزراير النحاسية، رأيت استانبول، الصور القديمة، في احداها أحيط سنوات بذراعي تزتدي عقالاً عربياً، أشهر مسدساً بينما يبدو وجهها الطفل رائقاً، رأيت الرحيل، الاطباق منكفأة فوق طعام بارد بينما يهبط داخلي ثقل من رصاص..

- أبلة سنوات.. أبلة سنوات..

- بقيت هناك مغطاة أربع ساعات.. لو نعرف تليفونك لاتصلنا بك.. الاسعاف لم تنقلها..

- أخذوا عم محمد البواب لسماع شهادته.. هو الذي رأى كل شيء..

- كان يقف لحظة...

تنفصل الطفلة عني، لا أقدر على النظر الى أعلى، إلى شرفتنا، رأيت شرفات السلالم لامعة، موضع العينين تجويف خالٍ من الزرقة، انتحت الطفلة ركناً، مثلي تماماً، لم تر لحظة مجيئها الى العالم، ولا لحظة رحيلها عنه، لا أتبين ملامح الطفلة، لا أدرك أصوات المتحدثين، يدميني النشيج الوعر..

- آه.. أبلة سنوات.. أبلة سنوات..

١٩٧٢

ناطق الزمان

مفتتح

في آخر الزمان، يقوم المهدي المنتظر، ناطق الزمان، يجيء الى الدنيا بعد أن يبلغ أمرها حداً لا حد بعده، بعده، أنه يعيش فيها، لكنه خفي لا يبين، وفي يوم مُعين، لحظة بعينها، قيل إنها ساعة شروق الشمس، يظهر، فيراه أولا الصفوة ثم يعم. عندئذ، يقوم جنده من كل مكان، من فجاج الأرض ودروبها يجيئون، آمنين، موحدين، فيملك الدنيا شرقها وغربها، كما ملكها سليمان الحكيم، وذو القرنين، قال الثقاة إنه لو ظهر ثم اختفى، وبقي في عمر الدنيا يوم واحد، لأطال الله عمر ذلك اليوم حتى يبعثه رب العالمين، حينئذ تمتلىء آخر أيام الدنيا عدلا وسلاماً، من بعد أن ملئت ظلماً وجوراً».

«جمع الكلمات»

هدأ القطار سرعته، انزلق سامي من فوق السطح الى فراغ ما بين العربات، قفز الى الارض، الهواء بارد، يقول أن الشتاء بانتظاره، باع كل شيء من أجله ثم فارقه. سامي نهار هجره الضوء،

في الميدان حركة ليالي الشتاء، أصدقاء يفترقون، جنود عابرون، مواصلات تشح فتتقطع أوصال المدينة، عليه أن ينتظر، يبحث عن مولاه من جديد، سيجمع الحروف يضاهي الارقام، ينبش ضفتي النيل بابرة، وحتماً يلاقيه كما قابله، سامي الآن وحيد حتى مرارته، بلا بطاقة شخصية، نزع كل أوراقه، ربما أذاقوه العزلة، سجنوه، وأين مخلصه لينقذه؟ أين ناطق الزمان، من يجمع كلماته ليوصلها إليه؟ سيختفي في الزحام، يمضي إلى أضرحة الاولياء، بعينيه يسأل الناس عنه، بارهاف أذنيه، بالذكرى المتبقية، يزور أمه، يرثيها، ينثر القرنفل الحزين فوق قبرها، يطلب منها أن تساعده، يسألها كيف تجلى له؟ رافقه، أضاع ما أضاع من أجله، ثم غادر.. كيف؟

* * *

أول الرؤية..

سامي لم يفه حرفاً، بالدمع يكاد يبكي، عاش اللحظة الأولى، رعشة الميلاد، خروجه اليومي الصباحي، السماء زجاجية اللون، سور باب النصر، عربات نقل الرمال، رآه قادماً من ناحية جبل الدراسة، قرص الشمس يلمس حافة الصحراء، كل شيء أعد، ليس صدفة أبداً، رآه في خفقات النهار الأولى، في اندفاق اللبن من إناء إلى اناء، سامي يعرفه، هذا ما قرأ عنه. قال مقترباً منه:

- أنت أنت..

في الطريق يخطو الصباح طفلا واسع العينين.. رقائق هواء..

- لن تفارقني يا سامي.. ما دمت عرفتني فلا يحدث هذا كثيراً في الزمان..

اتركني في غرفتك.. أمض أنت إلى رزقك فأنا لست محدوداً بمكان.

يبدأ ميلاد سامي، فكر في اللهجة التي يواجه بها صاحب المتجر، هل يتحدث إليه بأنفة وكبرياء؟ أو بلا مبالاة؟ كتم ما في نفسه، لم يبح، ستجيء لحظة معينة، يدرك فيها صاحب المتجر، وزملاؤه البائعون، والزبائن ما أدركه هو، يعلمون أن سامي أول من اتبع خطى ناطق الزمان. في المساء عبر كوبري الجلاء، تعاوده لحظات قديمة، تدفق دماً ساخناً طرياً، عودته إلى البيت، يعرف أن أمه بانتظاره، أبوه يصل بعد قليل، خروجه لمقابلة هدى، حركة يدها، لون نظرتها، رقة وجهها، مشروعاتها المشتركة، تخيلها شكل البيت الصغير المنتظر، وقوفه أمام الهدايا، يتمنى لو اشترى لها، هذا القماش، تلك الحقيبة، يسرع الخطى، يقابلها، تضحك فرحة، آه من حيرته في ليل المدينة، البيوت قضبان سجن، أين يذهب؟؟ يود لو يوقف أي رجل مار، فقط يتحدث إليه، فترة ما بين السابعة عشر وعامه العشرين، بسرعة مرت، لم يعشها، أين راحت؟؟ كيف؟؟ كأنها ستعود من جديد، فيض الآمال، اعداد المشاريع لحظات ما قبل النوم، الآن.. يعرف أن أيامه العطشى كأرض جفاها النيل، ستنبض من جديد، بكل ما راح، ما ضاع، صوامع الغلال الفارغة المنخورة تمتلىء من جديد يشم رائحة التين في الطريق

الضيق المحفوف، بمجرى النيل في قريته النائية، يمشي مع ابيه.. سامي لم يزر بلدته منذ سنين، بعد اليوم، لن تعصيه كلمة «لو» في ميدان التحرير، أمام محل يبيع الألبان، تتصدره زجاجة لبن كبيرة، آلة عصير مانجو، مناضد، همس شفاه، قاوم نفسه، آه لو صرخ، يطلع فوق برج القاهرة، يدور بهيلوكبتر، يشق فراغ ما بين الأهرامات، يعبر الكباري الصغيرة المصنوعة من أخشاب النخيل، يطوي مدقات الجبال، يزعق.. ابشروا..

ظهر قائم الزمان.. ناطق الزمان.. جاء العدل والسلام..

* * *

يطل من عينيه أمان، آه يا أب اليتيم، يا عائل الشريد، يا منجي الغرقى، نطق فارتجف سامي:

- أحسنت.. لكل لحظة أوانها المحتوم..

بينها صمت شفاف نقي كماء الورد، أصوات العصر تجيء من الحارة، يسمعها سامي أيام عطلته بمفرده، ثرثرة النساء، نداءات الباعة، يتأمل ايقاع أصواتهم وتنوعها، «يا خس يا حلو قوي». «اصلح بوابير الجاز». «الوداع يا ملوخية». أوان بعيدة تسقط، موقد يشتعل، صفارة نائية، مجهولة المصدر، رفع عينيه، وجه ناطق الزمان، لا يمكن من خلاله تحديد العمر، ربما قال ناظر، انه مليح شاب، ربما أكد مجرب حكيم، انها ملامح شيخ تجاوز الثمانين، محير، متى مولده؟؟ هل لمثله أم عانت آلام المخاض؟؟

- طالت رحلتي.. عذاباتي طوال السنين؟؟

الليلة، يتم سامي عامه الثلاثين، من منتصف الليلة ينحدر العمر، أيام رمضان الأخيرة تقول أمه. ما نصوصه لن يتكرر، أيام شبابه أيضاً ذابت، قال ناطق الزمان أنه سينزل إلى العالم، خفي، واضح، ظاهر، باطن، سيعرفه المقربون، بصيته يزعقون، الأمر في هذا الزمان صعب، عسير، منذ مئات السنين انتقل بين القرى وأسواق المدن، عبر جبال الثلوج البعيدة،الطرق الصحراوية المؤدية إلى الواحات، بعضها لا وجود له الآن، لم يطلب منه أحد تصاريح سفر، وإذا استبد الفضول بمخلوق فهو طواف لا يهدأ له قرار..

- أما الآن.. فالحذار.. الحذار.. كثر الأعداء..

سامي الآن يشم رائحة أبيه، عودته كل ظهيرة بأقراص الطعمية الساخنة، أمه تقعد أمام باب الحجرة، ترتق قطع القماش القديم تصلها ببعضها، بتأن تحاول ادخال الخيط في ثقب الإبرة، سامي يشد ثوبها، تقول اسكت يا سامي، اسكت يا حبيبي، قال ناطق الزمان، أن الأعداء لا ينتهون، منذ أن طاردوه زمن الخلفاء الأمويين، ثم العباسيين. اضطر إلى الاستتار في بلدة صغيرة، رقيقة كقصيدة شعر، نائية في الشام، اسمها سلمية، منها انطلق دعاته، غير أن الخلاف دب بين الأتباع ظهر أكثر من واحد في المغرب، في الهند، في مصر والسودان، ادعى كل منهم أنه هو ناطق الزمان، لكنهم خابوا جميعاً، بقي هو مستتراً، سامي ينظر إلى مولاه، يسمع اقتراب الليل، يرى أعوامه الثلاثين، زمان.. زم أبوه شفتيه، فرح

بنجاح ولده، قال أنه سيبيع ما أمامه وما وراءه، سيحمل حقائب المسافرين، يقشر عيدان القصب في مخازن محلات العصير، المهم أن يتم سامي تعليمه. يعرف ناس بالوحشة، أصابعه تمسك طرف ردائه الأبيض، في أي عصر نسج، من أي البلدة ومشايخها أن سامي ولده دخل الجامعة، بالتحديد كلية الطب. ربما جاء تعيينه طبيباً لمستشفى البندر، يمتطي الحاج سلامة أغنى مشايخ البلدة ركوبته، يمضي إلى المستشفى، الثقة تملؤه، الطبيب هو سامي بن هارون القط، أي والله هارون عرف يربي، يقول سامي:

- يمكنني أن أعمل لأساعدك.. وفي نفس الوقت..

يصيح أبوه: أبداً، أبداً،

همس سامي وعيناه تحتويان ناطق الزمان:

- أينما ذهبت تتحقق الأمنيات.. لن يتحسر انسان..

يقترب الغروب، لا يطيق سامي البقاء في حجرته، كل ما يراه، يتدفق اليه حزين، يفصله عن العالم بحر صعب العبور، مولاه يتمتم بأدعية تنأى بالوحشة، أصابعه تمسك طرف ردائه الأبيض، في أي عصر نسج، من أي قماش هو؟؟ قال أن غربته لن تطول، لن يرى أكثر مما رآه هنا في مصر منذ أربعمائة وسبعين عاماً، قبض عليه العسس، ظنوه من العربان المفسدين رموه في سجن الجبل، قضى فيه مائة عام وازدادت تسعاً، تعاقب عليه أجيال من الحراس، استسلم للقضاء، أليست عذاباته بعض مما يجري في العالم؟؟ كاد سامي يبكي، يسمع نواح أمه..

يا ليتني قبلك..

طفشت في الحارة، تشد ثياب النساء، تهيل التراب فوق شعرها تعض نفسها، تقول للرجال العابرين.. راح أبو سامي.. راح من يعولنا.. راح رجلي. من يعولنا؟؟ رجلي؟؟ ألفاظ توجع سامي، ينزل ثقل في دمه، تعريشة الأسرة انكسرت، الدفة التوت، الربان هوى في قاع اليم، النخاع انسل هارباً من تجاويف العظام، طوال شهور تلت، أمه تلقي أحزانها فوق أمور صغيرة وقعت، لو أنه لم يذهب إلى أقاربه في مصر القديمة لعاش، لو أنه رأى أخته نظلة، راح محسوراً لم يرها، لو أخذ إجازة، لم يعرف الراحة أبداً، لكن ما نسبة هذا إلى ما رآه ناطق الزمان؟؟ عذابات الكون منذ أن كانت الأرض صخراً ملتهباً، ثم نبات وحشي خال من الإنسان، الآن الليلة، تولد الآمال، تمتلىء الوديان خضرة، تمطر السماء في أفواه المحتضرين عطشاً..

-إذن.. أنت تعرف اليوم الذي رحل فيه أبي..

ليس هذا فقط، إنما يعرف رعشة قلبه عندما عرف هدى، لحظة مجيئها إلى المتجر تشتري فستاناً بسيطاً، تلاقي عيونهم، إدراكه مرفأ الحنين، مولاه يعرف طوافه الليلي، هدى موجودة في كل فتاة عابرة، تطل عليه من مكان خفي، معه دائماً، يتخذ في جوف الليل قراراً، أن يمشي من الحسين حتى كوبري الجلاء، يقف عند الحد الفاصل بين محافظتي القاهرة والجيزة، يتأمل أضواء العوامات

الخافقة، دوامات التراب الصغيرة والورق، يلفظ اسمها قرب الفجر بصوت عال.. هدى..

- ما دمت أتبعك يا ضيا عيني يا مولاي.. فلن أقطع الأمل في رؤيتها.

هز الإمام رأسه، ضوء الطرقات هامس، تنذر السماء بهلاك مجهول، رآها الإمام منذ ألف سنة، ترى، ماذا جال بعقول أهل الأزمان البعيدة وهم يتطلعون إلى السماء ذاتها، ما أثارته كل لحظة من أحلام، الهمس المتبادل ناطق الزمان عرف الغروب في قرى الهند الفقيرة، رآه في الإحساء في نجد بين ربوع الشام والأناضول بلاد القفقاس، بحر الزنج والبحر المحيط تجاوزا شوارع الضجيج، خرجا إلى الخط الحديدي المار قرب الحقول، المطار الصغير، الأنوار الزرقاء على جانبي الممر، تنفذ رائحة الليل، أنفاس الزرع، الوقود المتساقط بين القضبان، المولى يتطلع يكشف حجب المستقبل، يرى مدناً أخرى منثورة في أركان العالم، جزر صغيرة يسكنها الأعراب والصيادون..

* * *

البحث وراء التعابير

المراكبية لا يأخذون معهم أحداً، لكن ريس هذا المركب عندما رآها أفسح لها مكاناً رحباً، قال لناطق الزمان، أنه انتظره طويلا،

عند المنحنيات الحادة في المجرى، في جري الموج، راح يغني، لصوته رائحة أرض الشراقي، المتشوقة إلى الماء، يذكر امرأة بعيدة وعيالا صغاراً، يذكر مذاق البتا والبيتي، الحليب الصباحي، رائحة خبيز الظهيرة، رحلته تستغرق شهراً كاملا، ينقل الحبوب، الغلال، أواني الفخار، سامي يرقب خطو الليل، الليل لا ينزل من السماء، إنما يطلع من النيل، من الضفتين، من هسيس الحشرات، ذرات الغبار التي تثيرها أقدام المارة فوق الطرق الريفية، يترامى إليه تصفيق غناء، ربما فرح في قرية نائية، تدوم الريح فتطوي الزغاريد وطلقات الرصاص، ناطق الزمان يغوص في طبقات الظلام بعينيه، أينما ذهب يدركه البعض، يجهله آخرون، أو يتجاهلون، ربما أدركهم الأعداء المترصدون، في كل مكان ينتشرون، قال الإمام أنهم في البحار الكبيرة، فوق ثلوج الجبال، في ناطحات السحاب البعيدة، في الآثار القديمة، في المصارف، قواديس السواقي، تجاويف الطنبور، بين آلات القطارات، حول أذرع السيمافورات، في أروقة المستشفيات، في الابتسامات الصفراء، ارتعاشات الجفون، لو عرفوه لانقضوا بحقد، غل عمره آلاف السنين، يتوارثونه، سامي يضيع في رهبة الليل، يصغي إلى نبض العالم، لا يعرف كم انقضى عليه تابعاً لمولاه، شهور، سنين؟ توقف عمره عند الثلاثين، يبدأ من جديد أعوامه البعيدة المنقضية بسهولة قاسية لا تصدق، كأنها سنين غيره، من يدري، ربما لو مد البصر عبر النيل، يلقى طفولته، شبابه، حارة البيرقدار، وقفته يبيع الثياب، مساومة الزبائن، تغير النهار خارج

فترينة الزجاج، ليس معقولا أن ما انقضى ضاع تماماً.. لا بد من وجوده في مكان، زمن ما...

يرتعش صوت الشيخ العجوز، ناظر مدرسة ابتدائية، قال أنه رأى تباشير الامل في انطلاق النهر كل عام، في اكتمال القمر بدراً، قال ناطق الزمان أنه لا يجيء بالخوارق، لكن شيئاً فشيئاً يدرك العالم الحقيقة فيقوم قومة رجل واحد، سامي يقف عند آخر بيوت القرية، حافة الصحراء، يدوس بقدم في الخضرة، وقدم في الرمال، في سكون الليل يحكي الشيخ عن رجال ماتوا بعد انتظار الامام طوال حياتهم، كثيرون خرجوا يبحثون عنه ولم يرجعوا، توهج في السماء نجم وحيد، ليست المرة الاولى التي يجيء فيها الى هنا، منذ مائة عام قضى بمصر زمناً، ظهر في كافة قراها، نجوعها، لم يأمن أعداءه كهذه الفترة، يظهر في أسواق القرى، يتحدث الى باعة السمك المقلي، وقطع البطيخ، بالضبط قبل انكسار عرابي، توالت الأيام، تحسس وقع الهزيمة، وبدأ الحزن يفاجئه، لم يهاجمه سنين سجنه الطويلة، ياه.. لا يضارعه الا حزنه العظيم كلما تذكر موت الحبيب، المنجب النجيب، إبن بنت رسول الله في كربلاء، في كل عام، عاشر محرم يقيم حداداً يكاد يهلك فيه، لكن الحذار، لو قضى لن يقوم أبداً، لن يعرفه أحد، أبداً يضيع، إختبأ في ثياب الفقراء القتلى كما اختبأ من قبل في جراح ضحايا المغول بخوارزم، انطوى مكتئباً في فوهات المدافع المنطفئة، ناءت أعضاؤه بالهم فاستتر، لو أمسكه الاعداء لمزقوه قطعاً أكبرها في حجم الحبات الرفيعة داخل

ثمر الباميا، غير أن فلاحاً عجوزاً من هذه القرية عرفه، تحسس سامي بعينيه البيوت في الظلام، ربما نام الفلاح الفقير في بيت من هؤلاء، ربما طبع أثر قدميه فوق التراب الذي يطأه سامي الآن، اقتفى الفلاح خطوات الإمام، أقسم الأيمان وأخذ على نفسه المواثيق والعهود، لن يعلن حقيقة الإمام لأحد، إنهما غارقان في زمن الهزيمة، الفرحة غاضت من القلوب، أما الحزن فيثقل الجميع، شاب الاطفال، قال ناطق الزمان، أن هذه الايام البعيدة ذكرته بأيام أكثر بعداً، عندما دخل سليم العثماني أرض مصر ولعب سيفه في الرقاب فكاد ينهي الحي بها، عندما اندفع المغول عبر بغداد واجتاحوا الشام في أيام، رأى في الاعداد رجالا من قبائل الهون البربرية القديمة، أعوان تيمورلنك، الاسبان الغزاة ذابحي هنود الازتيك، محاربون متوحشون يأكلون لحم الانسان، ارتعش سامي، يكاد يسمع وقع سنابك الخيول، اصطدام السيوف بعظام الجباه، قال ناطق الزمان لابراهيم الفلاح العجوز، ربما لا نرى تحقيق الآمال، تموت محسوراً، أصر الرجل على صحبته، زعق منادياً ربه، عند قرية « شطب » جنوب أسيوط نسي أهله وماله، ناطق الزمان أبوه، كفنه بيديه، صلى عليه، يومها تبللت السماء بمطر، ناءت بحمل غيوم ثقال، زعق الناس في الصعيد، أهذه نهاية الزمان؟؟ أحرق الجثمان، نثر الرماد في أركان العالم وزواياه، إبراهيم العجوز تبعه حتى النهاية، لم يعرف اليأس.. بكى ناظر المدرسة، العارفون به، الذين جاؤوا من القرى المجاورة، طافوا معه البيوت، يكاد سامي أن يرى الفلاح

العجوز، ابراهيم الراحل منذ مائة عام، ذهب ولم تتحقق الامنيات، أما هو سامي فكل شيء يراه دانياً، يدخل الجامعة، يصبح طبيباً، يسمع صوت هدى، هدى الآن قريبة منه، تقول..

- مرور سنوات لا. يعني شيئاً..

تقلب السكر في كوب الكركديه الساخن، لحظات صمتها في أذنيه حديث متصل..

- إسمع.. نبدأ معاً.. نذاكر دروس الانجليزية..

لا تتدفق في صدره رغبة، يحتضنها، يذيب فوق صدرها حزنه، ارهاق أيامه، يرقص فوق الرخام، يثب فرحاً، يهدىء، ينفي آلامه، آه لو يزعق في الناس، تفيض عواطفه، تعبر ضلوعه، ولا عاصم بعد اليوم..

- لن يستغرق الامر سنة.. تعيد دخول الامتحان وألحقك أنا في الجامعة..

أليست رغبة أبيك.. إنها رغبتي أنا يا سامي..

ينطق سامي، تتبدل الأشياء، يرق الهواء، يقول:

- هدى أنت رائعة.. أنت ملاك..

- يا سلام يا سامي..

تضيق ما بين حاجبيها، يمتلىء الفراغ بينهما بالآمال، تبدو له سنين عمله القاسية وهما، اسراعه ليلحق مواعيد العمل، الوقوف النهاري الطويل، ابتساماته للزبائن، لم يعرف هدى خلال هذه الفترة، كانت تعيش في مكان ما، قبل أن يعرفها. يفكر، لا بد أنه

سيلتقي بانسانة تعيش الآن في منزل معين، تتحدث، تأكل، ترى من هي؟ تبرق عيناها في ذاكرته، في اتساعها يرى البلاد التي تمنى السفر إليها، البيوت المغلقة في الشتاء، داخلها أصوات الشارع البعيد، زعيق السكارى، هدى تحمل صينية فوقها أكواب الشاي الساخن، بين يديه كتاب، في أنفه رائحة الأثاث البيتي، تسأله عما يجب أن يأكلاه غداً، تتصل به في العمل، تدعوه الى غداء خارج البيت.

ألا تذكر.. اليوم عيد زواجنا الثالث..

تحلق ذقنه كل صباح، تميل تغسل ماكينة الحلاقة، يخطف منها قبلة، يحتضنها عند وقوفها أمام البوتاجاز.

يا سلام يا سامي.. حاسب الشاي..

يدعوها الى السينما، يمضيان معاً، يسمع صلاة ناطق الزمان، حديثه الى مريديه، تضحك هدى، يبعث أبوه حياً، مورد الوجه، فرحاً، لا أثر لشقاء السنين حول عينيه، ينفض الغبار عن لافتة مدرسته القديمة، تعود طفولته، آه ما أقسى استرجاع الطفولة، يأكل كشري الحاج عبد العاطي، يفرح لمجيء يوم الخميس، يعقبه الجمعة، اجازة، يسمع قبقاب أبيه العائد من صلاة الفجر، يفرح في لحظات الهدوء بين أمه وأبيه، يعاكس الحاج حامد مدرس الرسم الذي يقف في الفصل، يتأكد من اغلاق الابواب والنوافذ، يتطلع إليه الصغار، يقول.. اسمعوا يا أولاد.. اسمعوا غناء عن مصر.. عن مصر يا

أولاد، يحمر وجهه، ينظر الصبية الى بعضهم، يتضاحكون، يستمر غناء الحاج حامد، الآن، يذكر مذاق صوته، يكاد يبكيه. يتحدث الناظر، والخفير، والرجال.. لكن لا بد من مواصلة الرحيل..

* * *

– أرى دبيب أقدامهم.. أشعر بانتشارهم..

أدرك سامي خوف، صاح طائر غامض في الفراغ العتيم، هل يجرؤ انسان؟؟

– أنا لا يدنو مني أحد.. عند الخطر استتر من جديد.. أذوب في الصخور

الجأ الى الكهوف الجبلية.. أغوص في عروق النحاس في قاع منجم بعيد.

غير أن الامنيات تشل الى حين..

سامي يهوي، تصدمه أرض مجدبة، يسفح عمره عند أفق المغيب، تعود إليه لحظات احتضار أبيه، رحيل هدى، احترق قلبه يومها، ما الذي جرى؟

– متى يجيء الأوان الذي لا بعده ولا قبله يا مولاي؟

– ربما بعد شهر.. بعد سنة.. علم هذا عند ربي..

لو يزعق سامي، يعبر صوته الهواء، يجفف صديد العيون، يدور مع سيور ماكينات الطحين، أبراج الكهرباء، الجبال المثقلة بالبوص..

– يكون عمري انقضى يا مولاي.. لا أسمع هدى أبداً.. أيرضيك ألا أسمع هدى.. لا تعود من الحجاز.. لا أراها بكراً من جديد.. لا أدخل الجامعة.. لا أداعب طفلي الصغير واسع العينين.. طري العظم..

زعق ريس المركب، يلتوي القلع التواء حاداً، يخف السواد، يفصح النهر عن ملامحه،

– نشقى من أجل الاجيال المقبلة يا ولدي..

ينعم أهلها، يشربون اللبن من النهر، يطرح نخيلهم خيراً وطمأنينة، يأوون إلى مضاجعهم آمنين. الغرباء المفزعون في سواد الليالي، يرق هواؤهم، يصفو ماؤهم. ارتجف سامي، أين أنا عندئذ؟ أين موقع قدمي؟ أي أحجار تثقل رأسي؟ الظلمة تغشى عيني جمجمتي الخاويتين؟ أحلامي تتجمد في أربعة وعشرين ضلعاً، عمود خال من النخاع، رسغان وساعدان، كل ما أصبو إليه، أين أنا حينئذ؟ أين أنا؟

* * *

يخوض مياه النهر الضحلة صياد عجوز، يغرس حربة رفيعة مدببة في ظهر البلطي والبياض، سامي يتأمل قدمي الرجل، منتفختان بالرطوبة والطمى، أخبرها أن القوارب تزحم في النهر، صغيرة سريعة، في كل منها رجلان، يوقفون المراكب الكبيرة، يفتشون أواني الفخار، ينبشون أجولة القمح والبلح، حتى الآلات

الصغيرة المرسلة في الصنادل، يفكون تروسها، لم يبد على الرجل أنه عرفها، أيضاً لم يتضح هل يجهلها؟ لكن ما الذي دعاه الى اخبارها بهذا؟ عاد صامتاً يخوض في الماء الضحل، نظر سامي الى مولاه، لطالما أطبقت عليه جبال أعلى من هذه، صخورها أقسى، يعرف العالم شبراً شبراً، وأرض مصر، يعرف أي نتوء حجري عند مدخل سمالوط، التمثال الاثري القديم قبلي جهينة، الغرف التحتية في البناء المشيد قبل الطوفان، حيث الجو رطوبة في الصيف، دفء في الشتاء، يعرف المصانع، مواعيد تغيير الورديات، صوت مدفع رمضان في دمنهور، السويس، صوته في قنا، يحملق الى فراغ بعيد، ربما يرى أشياء لا يراها هو، سامي توجعه خواطر مفاجئة، ربما يعلو أزيز طائرة، تطل منها عيون فاحصة، تكشف المخبأ من الآمال، يسكون ناطق الزمان وتابعه الامين.

* * *

جنود اللوري عند المدينة الريفية الصغيرة، بكاء أحدهم على صدر الامام، أسمر الوجه يتوسط ذقنه وشم أخضر، مستدير، باهت، رآه من زمن، كان مادة أحلامه، والصور التي تخللت أيامه، إنه من الانفوشي، يمتلك دكاناً صغيراً يبيع فيه الفول والطعمية، رأى الامام في صباه، في كل تجويف يفصل بلاط الرخام الصغير الذي يرصع دكانه، في مرض أمه وشفائها، انتظره عند ساحل البحر، في أبي قير، فوق الصخور، لا شاطىء، انما صخور وحشية، مقطبة الجبين، تلتقي التقاء صريحاً بالسماء والبحر، لم ينله يأس، حتماً

ينطق الزمان، من زرقة المياه، من ملوحة طعمها فوق الشفاه، من الطوابي القديمة، مواسير مدافع عرابي الملقاة برثاء، آه يا مولاي.. جئت، وأين؟ هنا، ارتجف اللوري، لانت ذرات الرمال، مالت عيدان القمح، ابتهل بقية الجنود، دمعوا، نزلا من اللوري، تساءل سامي، هل يراهم ثانية؟ محمد ابن الانفوشي؟ حسن نساج الكليم من فوة، عبد الهادي عامل الآثار الصعيدي، السائق النوبي، قال ناطق الزمان، حتماً سيرجع، يلقاهم ثانية، هو موجود حتى لو استتر، فوقهم، حولهم، لا تبعده عواصف، لا تقصيه صفارات انذار أو دوي..

* * *

«لماذا لم يقل اليهم أنه ربما عاد بعد ألف سنة كما أخبرني؟؟»

بماذا يجيبون لو عرفوا أن الأعمار ربما انقضت في انتظاره؟ استعاذ سامي بالله، يعرف أن الأعداء يطرقون الوسائل كلها، ربما بذروا الشك في حقل روحه، توجهوا الى الحجاز، ذبحوا هدى.. يحضرون دمها الحبيب اليه، يرمونه على عينيه فيضيع منه البصر، يقطع من رجوعها الأمل، شربها الكركدية، همسها الخفيض، توقفها أمام فتارين الاثاث، متاجر التحف، تقول هي، لا بد أن يحتوي الصالون على فازة صينية، تمثال محارب زنجي، ترى الاطفال الصغار المصنوعين من الشمع في متاجر الثياب، تهمس، أنا أحب الاطفال، بخجل، يتجدد الحديث، تطلب بنتاً، يتمنى ولداً، يكتفيان لا أكثر، أما إذا جاء الاول ولداً والثاني ولداً والثالث، تضحك

هدى، لا بد أن نصر حتى تجيء مديحة، يسأل.. لماذا مديحة بالذات؟ لانها تحب خالتها جداً، هي أمها التي لم ترها، لم تعرف الا هي منذ الرضاع، يتساءل سامي، هل تذكر هدى بين جدران بيتها المغلق ما قيل؟ ربما أنجبت ابنة الآن، حجازية الجنسية، هل اسمها مديحة أيضاً، السماء خاوية، صحراء في عيني سامي، الذكرى تلون الاشياء، تنأى بالامام عنه، يفيق الى وجوده.

* * *

– لا بد أنهم يسدون مفارق الطرقات.. يختبئون في عربات الرحيل.

يكاد يحس لون نظراتهم، قسوة خوذاتهم المكسوة بشباك التمويه، الهلاك في أسلحتهم، تهب ريح عاتية، السماء حزينة، الارض تقلع ويفيض الماء، سكت الامام لحظة كالسنين، ثم قال انه يعرف درباً صحراوياً غرب قرية الغنايم ينتهي في صحراء السودان، لم تطرقه قدم انسان منذ مر به يتبعه إبراهيم الفلاح العجوز، يمضيان فيه، يخرجان شمال أسوان، ثم يمضيا، خطت قدماه فوق الحصى، رق الغمام، غير أن شيخوخة غريبة، زحفت في عروق سامي، لكم أحس بقصر عمره، في مقهى الكلوب العصري يطوف رجل ضخم، يرتدي معطفاً جلدياً، فوق ظهره رسم لوجه أحمر، مشوه الملامح، بارز الانياب، لا يدري أهو لجن أم انسان؟؟ اربعة شهور، في كل يوم، نفس الميعاد يجيء، يضع بطاقة صغيرة فوق منضدة الرخام.

«اقرأ الكف، حاضر، مستقبل، احلام، امنيات – سيد سعيد».

يهز سامي رأسه، يمضي الرجل، حتى استبد الفضول بسامي ذات مساء، شد الرجل كرسياً، بسط سامي راحته، ضيق الرجل عينيه، اسند رأسه إلى يده، رأى سكة السفر، وضيقاً في العمل، ومرضاً في الصغر..

– لكن عمرك قصير.. ولو عشت مائة سنة..

ماذا يقصد؟؟ أي شيء يعني؟؟ لكنه قام، دس بطاقته في جيبه، طلب خمسة قروش، في هذا الوقت لم يمض على سفر هدى اسابيع، هجره النوم، راحة عقله متعة نائية، لا يدرك صاحب المتجر ذرة من همومه، أما الزبائن فيشيرون، أعطنا من هذا، لا.. من الاحمر، اقطع أربعة أمتار، لا داعي، نلف ونرجع، يشرب الماء تسبقه الاقراص المنومة، حكى لناطق الزمان عن عذابات الليالي، سهره حتى مجيء الرجل العجوز مجدوع الانف، في الفجر تماماً يصيح.. «يا نايم قوم وحد الدايم.. بكره تقوم القيامة.. وينتصب الميزان، يبقى اللي وفى يعدي.. أما الشقي حيران» يدرك أن يوماً انقضى، يزعق الرجل، تبقى النوافذ مغلقة، من عشرين سنة، اذ يقترب الفجر، يصيح رجال الحارة على بعضهم، الحاج حنفي جساس البهائم، يدس يده طوال النهار في الارحام ليعرف الانثى المقبلة من الذكر، يصيح على سعودي الجزار، سيد الترزي، علي المكوجي،

ينادي ابوه ، في دفء فراشه يسمع وقع القباقيب فوق بلاط المساكن ، اندفاق المياه من الصنابير ، تجمعهم في الحارة ، عز ليالي الشتاء ، يمضون الى الحسين ، اصواتهم عالية ، تبقى معلقة بين البيوت زمناً بعد ذهابهم ..

* * *

آه لو يسأله سؤالا واحداً .. هل ينوي الاستتار عنه ، الاستتار عنه هو؟؟ هو الذي باع كل شيء ، لا يجرؤ على نطق الكلام ، يردده عقله ، في خطوه فوق الرمال القاسية ، تحت انصهار الشمس الذي يزرع العوسج في العيون ، يعرف ان الامام يدرك ما في خاطره ، عالم بكل شيء ، قرأ كل ما جرى ، وما سيجري في كتاب الجفر الذي تركه الامام علي ، فيه رعشة الامل ، خفقة القلب ، هم الفكر ، فرحة الغريب بالعودة الى دفء البيت ، آه لو يجيب حيرته .. يفك ضيقه ، يلملم عذابه .... لكنه لم يفه حرفاً ..

« مناجاة القلوب »

ماذا يفعل بدونه؟؟ يسحقه يأس مخرب كالغزاة ، لحيته طالت ، ملامحه تغيرت ، قبل رحيل أبيه ، موت امه ، قبل حدوث شيء مخيف ، تمر به لحظات يتجسد فيها ما هو متوقع ، عند خروجه من سينما الكواكب ، عودته الى البيت في منتصف الليل ، يرى اللحظة التي تموت فيها امه ، بكل سوادها الذي ينزف دماً ، عندما رحلت رأى أن الموقف غير جديد عليه ، الآن يهوى قلبه بين ضلوعه ، يرى

لحظة يخافها ، استتار الامام ، احتجابه عنه ، هل يقتل نفسه ، عندئذ؟؟ وهل هذا سبيل للعثور عليه؟؟ الآن يجلسان امام كشك صغير داخله عجوز نوبي ، يحرس ملايين الاطنان من الطفلة المنتزعة من المنجم القريب ، مهجور منذ شهور ، لكن من يتوغل اربعين كيلو متراً شمال اسوان في الصحراء ليسرق حفنة حجارة أو طن حتى؟؟ الصخور تغرقها ، تتخذ أشكالا غريبة ، وجوه آدمية ، سيوف مشرعة ، بيارق مكسورة ، فيها يرى كل شبر وطأه مع مولاه ، القرى ، الآمال في العيون ، بلاد الافغان النائية التي شرعا في الرحيل اليها ، الهند ، البحار الجنوبية ، سفن صيد الحيتان ، رائحة العشب في الغابات ، قرقرة النرجيلة فوق المصاطب ، تطلع الحراس في بطاقات الغرباء ، في الصخور عيون واسعة قاسية فارقت رؤوس أصحابها ، ناطق الزمان صامت ، لماذا؟؟ لا يتحدث عن جيوش الاعداء التي رآها ، أو غضبة الارض ساعة الزلازل ، الفيضانات ، الاوبئة تكنس البشر ، يسيح بعينيه عبر الافق ، ايكشف حجب المستقبل ، ربما ضاع منه كتاب « الجفر » الذي يحوي كل شيء ، من بعيد يحبو عويل قطار ، يفاجئه حنين المسافرين ، شعور الغربة المكثف لحظة عودة الأسرى ، لماذا يسكت الامام؟؟ لماذا يطل الحرمان من جديد؟؟ يكاد يصرخ ، يطلب منه ان يصارحه بما ينوي ، اما الحارس النوبي فينظر اليه ولها خاشعاً ، كأنه قضى في رفقته العمر كله ..

* * *

قال إن عربة لاندروفر ، تتجه الى حشا الصحراء ، ركابها

أربعة، يحملون أسلحة، وآلات تصوير، قبعاتهم تقيهم الشمس، تابعها ببصره حتى اختفت وسط أعمدة الرمال الناعمة التي ترتفع من الارض لتتصل بزرقة السماء ساعة الظهيرة، تمطى في الفراغ عواء ذئب، قال الحارس العجوز، كأنه يقدم تقريراً مفجعاً، ثمة طائرة حومت الى الشرق، جرادة ضخمة، يظن البحر مقصدها.

* * *

سامي يرى نفسه الآن مصلوباً ساعة مغيب، ينادي الامام أن يظهر، يعيد ما انقضى، كان يخرج كل ليلة الى مقهى مصطفى درويش بميدان الحسين، يشرب الحلبة، ينظر البنات المسرعات الى بيوتهن، يرى رجلا مجذوباً، يلف حول رأسه عمامة حمراء في لون الدم، يلبس جاكتة عسكرية عليها شارات ونياشين تجاورها أغطية زجاجات البيرة، البيبسي كولا، يرفع سيفاً خشبياً، يترصد أعداء يراهم هو، يطارد أجانب خان الخليلي اذا ما حاولوا التقاط صورة له، صار يقف في الميدان، لحظة الغروب، ينادي الليل ألا يقبل، والنهار الا يرحل، يرميه العيال بالطوب.. بلعو.. بلعو.. عند حارة الوطاويط رآه دامي الوجه، يمسك احدى أسنانه بيده، أي بشر يدنو منه، هو عدو يبغي رأس الحسين بسوء، سامي الآن يرى عنقه في قبضة جندي يسوقه الى غرفة الحجز في قسم، يلقيه بين اللصوص في غرف الحجز يسألونه لماذا جاء، أي تهمة؟ بماذا يجيب؟ لا يأخذه يأس، يفتش تحت أخشاب الحجرة، ووراء طلاء الجدران، في القضبان التي تسور العمر، في غرف التعذيب، في اللوريات الرمادية

المغلقة، تأتي امرأة سجين تناديه من الطريق، يتعلق السجين بقضبان النافذة، تحكي له أخبار العيال، ذهاب أخيها الى المحامي من اجله، أمه بخير، سيجذب سامي الرجل، يتعلق بدلا منه، يسأل المرأة، عابري الطريق عن مولاه، آه، يترقرق الحزن في عينيه، يرى نفسه معتقلا، أو نزيلا في مستشفى للامراض العقلية، ولو.. سيبحث عنه، ربما تخفى بين النزلاء، في الاشجار الجرداء، في ذرات الرمال المرشوشة بالبول، كل صباح يكتب خطاباً الى هدى، ينتظر مجيئها فجأة، تطبع أثر قدميها فوق الارض التي مشيا عليها من قبل، لكن.. لو ألقاه الأعداء فعلا وراء الاسوار، من يزوره؟ من يحمل خطاباته ليلقيها؟ من أين يأتي بطوابع البريد؟ روح أبيه تحوم حوله، يرى أمه وهما عند أشجان الفجر، آه لو يقول كلمة، صمته يلوي روحه، يفيض أسياخاً محماة في قلب سامي، لو كلمة، آه يا ناطق الزمان، يا إمام، العمر الطويل تمهيد للحظات الصمت هذه، أهكذا.. ببساطة حادة مرهفة كحز السكين.. أهكذا؟

(دمعة الباكي على طيبغا منصف الشاكي)

(... سبحانك يا من أنزلت الكتاب المبين على نبينا أشرف المرسلين، وقصصت عليه أخبار المتقدمين والمتأخرين، نحمدك أن جعلتنا من أمتك، وحشرتنا في زمرتك، وبك نستعين، فقد شغلني أمر هذا الرجل الغريب، المعروف بين الحاضر والغائب بطيبغا، فصرت أستقصي أحواله وأحاول أن أجلو أخباره حتى وقع بين يدي من مخلفات السلف هذه النبذ والشتات، للفقير الى ربه (ابن الحداد) والتي عنوانها (دمعة الباكي على طيبغا منصف الشاكي). وقد فرحت بها فرحا عظيما لأنها تكشف بعض ما غمض وطواه الزمن. قلت فلأنسخها وأريها للأصحاب ربما نالنا من هذا بعض الثواب. والحمد لله رب العالمين..

★ ★ ★

(أقول وكأن هذا يجري أمام عيني الآن أن الليل كان شنيعاً مهولا معتماً حتى النوم فارق العسكر، صاروا يزعقون، الله أكبر، الله أكبر، أما الجليد فبالقطن المندوف أشبه، والى ريم الصابون أقرب. ينزل من السماء ويطلع من الأرض فيكاد يغرق خيلنا وأحمالنا، انقضى وقت طويل على حصار مولانا سلطان المسلمين لآخر قلاع

الفرنجة في بلاد الشام. صار كل منا يقول، أما فك الحصار فالجند متعبون، أو الاندفاع، سرى الهمس بأن تباشير وباء بدأت، ان لم نتداركه فسيرمينا لقمة هينة سائغة أمام الكفرة. قرب الصباح، النهار قريب، وارتجت الأرض رجاً عظيماً، وأضاءت الوادي نيران النقوط التي سلطت على أسوار القلعة، أخذنا، لم نعرف، أهجمنا أم هوجمنا، صرنا نحن المشايخ نقرأ الأوراد والأذكار نطلب الرحمة من رب العالمين، صهلت الخيول أجفلت الأرواح في الأبدان، سرى الخبر بيننا كالنار في عيدان البوص، اندفع صفوة من فرسان الاسلام الى القلعة للمغازاة في الفرنجة الكفار وانهاء الحصار، قيل من أمامهم؟ جاءنا الجواب، الأمير طيبغا آق سنقر، أول مرة اسمع فيها الاسم، لم ينقض الكثير حتى تدافع العسكر من ثغرة كبيرة الى داخل القلعة. أقول وقد عاينت هذا بنفسي، ان الجنود الذين نال منهم التعب وبدأ فيهم الوباء، رأيتهم في لحظة اندفاعهم، أذكر هذا طوال عمري فالسماء ساعتها محملة بغيوم ثقال لها عيون وآذان، كل التعب ضاع وراح، رفع الفرنجة الأعلام يطلبون الأمان، دخل سلطاننا المدينة يعرج عرجا خفيفاً فاحدى ساقيه أقصر من الأخرى. وخلفه حملة المصاحف، يصيحون، مكبرين مهللين، غير أنه قبل جلوسه على حجر أو دخوله الى مكان، نادى من حوله، أمرهم باحضار فارس الاسلام الأمير طيبغا آق سنقر من اينال.

* * *

عانق سلطاننا الأمير طيبغا وضمد بنفسه جروحاته، أعلن

المنادون أنه استقر به نائباً للسلطنة، مختصا بالمظالم والأحكام، لهجت الألسن بأن الناصر سوف يعقد لابنته على طيبغا، لم يتم الزواج، فلا أستطيع الجزم هل فكر سلطاننا بهذا أو لا؟؟ كما أني والحق أقول، لست عليما بكل الأمور ولم يتبحر طيبغا معي في حكايا النساء، مرة واحدة فقط كنت حديث معرفة به، شاورني في شراء جارية سوداء يقال لها اتفاق العوادة، ضحك وقال، فلنجرب سماع جواري السودان، حدث أن بعض اللئام أشاعوا أنه رتب أمراً مع تاجر الرقيق الحبشي ليحضر له صغار الجواري السودان، قالوا انه يهوى ذلك، أعود الى ما كنا فيه، فأقول ان بعض الأمراء أدركهم الغضب وأولهم طشتمر جندار، ذهبوا والسلطان قلاوون في طريق العودة، داروا في الكلام، تعجبوا، كيف يأمر سلطان المسلمين باقرار طيبغا وهو ما زال غضاً طرياً - كان صغير السن شابا في هذا الزمان - نائبا للسلطنة، يحكم في المظالم الكبيرة ويكفل حقوق المؤمنين والأيتام، أصغى اليهم. دار برأسه إليهم، قال: أهذا كل ما عندكم؟ قالوا والله نحن نخاف سلطاننا، قال وعيناه في الأرض لا تحيدان، غوروا من وجهي، لو كررتم هذا لقطعت أجسامكم وألقمتكم وحوش الأرض، ارتجفوا، تقهقروا، استدركوا فارطهم وأسرعوا الى خط التبانة، السكون في الدار، العبيد يقفون في الزوايا والأركان، حتى نائبا لها، هز رأسه: ادعوا لنا حتى نشفى من جروحاتنا، اطلبوا لنا الرحمة والمغفرة.

* * *

نزل الليل ناعما كزيت البلسان، الصيف انكسرت حدته، في كل ليلة يتوجه أهل العلم وأصحاب المعرفة من التواريخ الى بيت طيبغا القائم عند خط التبانة، السكون في الدار، العبيد يقفون في الزوايا والأركان، حتى بعد استقراره نائبا للسلطنة بقي في بيته، أبى الطلوع الى القلعة، هنا نكون أقرب الى خلق الله، هكذا قال، حمل الخدام فوارغ الصحون من بعد أن فرغ الحضور من العشاء. قال الشيخ سراج الدين أنه جهز من الألغاز ما يعجز الجلوس عنه، تندر يلبغا اليحياوي أمير اخور وأعز أصحاب الأمير طيبغا. الكل سيحلون الألغاز عدا أنت يا شيخ سراج، لوح الشيخ بيده، أنشد:

وذات ذؤابـــة تنجر طولاً · تراها في المجيء وفي الذهاب
وما لبست مدى الأيام ثوباً · وتكسو الناس أنواع الثياب

.. تحداهم الشيخ أن يحلوا اللغز، علت الأصوات، كثرت التفسيرات، طيبغا هادىء ينظر الى الجلوس، وجهه مريح لكنه عبوس، يفكر في أمور بعيدة لا نعرف ما هي، أخبرني فيما بعد أنه يضيق بالكلام لو دار ولف ثم استكان، تثقل الليالي في نظره، يفارقه الأصحاب فيغرق في الخيال، ما أصل الحياة؟ تمضي بنا الى أي حال، ضحك الشيخ سراج، صاح أقول لكم، هي الابرة، لم يكد يشرع في الحديث حتى علا صوت صياح في الخارج، الزعيق أرجف مياه النافورة التي تنزل السكينة في الجو، قال يلبغا اليحياوي عجيب، من يجرؤ على الصياح؟ خرج طيبغا يلتحف بعباءة حرير شاهاني أصفر، قال العبيد: لا تؤاخذونا مولانا لا شيء يعكر

الهدوء، خطا عبر الحديقة، برز شاب يرتدي ملوطة ممزق الثياب جاحظ العينين من فزع، انطرح قبل الأرض، أعانه طيبغا، أخذه، شاب مليح حلو الصورة صوته مرتعش، أنا خازن السروج، رأيتني كثيراً، هز طيبغا رأسه، أخذه العجب، يراه كل يوم، يضع سرجه فوق الحصان ولم يحفظ خلقته، ربما لم يعن بالنظر اليه، ربت على كتفه، بكى الشاب، لا تؤاخذوني يا مشايخ، اندفع شاكياً باكياً، نادباً حظه، منذ أسابيع تزوج بنت ناس رقيقي الحال، لكنها ذات حسن وجمال وكمال، ويشاء الحظ أن يلمحها في سوق الشماعين، الأمير جنكلي ابن البابا ناهز السبعين، عرف عنه ميله الشديد الى صغيرات السن، ويقال انه لا حول له ولا قوة معهن، بمجرد أن رآها، طاش عقله، ضاع صوابه، قال هاتوا لي هذه، لا أنام حتى تكون عندي، قام رجاله وراءها، زنقوها عند سوق الخيل، الوقت غروب، أحاطوها، لفحوها ثم ولوا، بكى خازن السروج، امرأته يتيمة، مسكينة ستموت لتوها، يبحها، يحبها والدنيا فيها الكثير من الحريم فلماذا امرأته من دون النساء، قال الشيخ محب بن نباته، وما تظنه سيفعله لك أميرنا طيبغا؟ ثم أطرق طيبغا مقدار درجة، ضاق برد الشيخ، تعلقت عيون الباقين بوجهه، اذا سخط على الشاب سخطوا عليه، اذا أبدى الترفق تهونوا به، طمأنوا أرواحهم أن الأمر سيعدي، ليست الحادثة الأولى التي يأتيها ابن البابا، وهو صاحب سطوة وهيبة، يخافه الكثيرون، مال الأمير يلبغا همس في اذن طيبغا قال له مثل ذلك، غير أن طيبغا قام فجأة، نزع عباءته،

صاح على الشاب، قم وجهز ركبي. التفت، لا ينام هادئاً في بيته وقد لجأ اليه صاحب مظلمة، نزل الارتياع والخوف على الوجوه، الفاعل جنكلي ابن البابا، قال الشيخ سراج، تعرض نفسك لخصومته يا أمير، ازداد طيبغا قبحاً في هذه اللحظة مع أنه في سبيل فعله الخير، قال لن يرضى سلطاننا بمثل هذه المظالم، قال يلبغا، لكن حدث الكثير من ذلك ولسان حاله يقول، لماذا تستنفرك الحادثة بالذات؟ لم يجب طيبغا، خرج لساعته، كنت مهموما عليه، انصرفوا كلهم حتى يلبغا اليحياوي ربما انقلبت الأمور فيدهم طيبغا في بيته عندئذ يؤخذون، قلت والله لا أمضي حتى أعرف ما جرى، وأوغل الليل في العتمة، عظم البرد، خلت نفسي في ليل شتاء عفى..

وارتجت القاهرة رجاً شنيعاً، رجفت الألسن بما جرى وكان، صار العامة في الأسواق والزعر وأسافل العياق، وأوباش الناس الشلاق، لا يلوكون الا ما جرى، ترامى الأمر بسرعة كصغير الشرر لو دب في القش العظيم، فوهجه وأشعله، أقول وقد سمعت ما دار بأذني، ان الحديث واحد في الحواري والطرقات، بين الحريم في البيوت، فوق الأسطح، وكلما قابلت انساناً بادرك بسؤال، هل دريت بما كان؟ والحق معهم، فلم يحدث في سالف العصور والأزمان، أن أميراً أقل رتبة من أمير عالي الشأن، يجبره على التراجع في أمر أتاه ولم يعد في حسبان، وزاد الأمر هولا أن طيبغا وجنكلي مملوكان لسلطان واحد، أثار هذا حفيظة أرباب الجاه قالوا فعلها طيبغا فرج علينا العوام، لكن طيبغا ذاع أمره واشتهر، وصار كل من عنده

مظلمة يقول، هيا نذهب الى طيبغا، فيسأل من هو؟ فيقال هو من رد امرأة خازن السروج الى زوجها بعد أن خطفها أمير كبير جنكلي بن البابا..

* * *

حكى الشيخ جلال الدين الكندري في تاريخه المعروف (الطريق الآمن إلى حقيقة أهل القرن الثامن) قال لما شاع أمر طيبغا قلت لم يمر علي شخص كهذا، والله لأذهبن إليه، أراه وأحادثه بنفسي، وجدته متواضع الثياب، بيته قليل الرياش، رأيته قبيح الوجه غليظ الشفة ألدغ اللسان، بطيء الكلام غير أني قلت ليس هذا ذا شأن قلت كيف تنقذ امرأة واحد من العوام وتعادي جنكلي وهو من عشيرتك وأبناء جنسك؟ قال بلسان بطيء. تحرق قلبي المظالم، السماع بها أو رؤيتها، تهل وتتابع، وقديماً مشيت في الركاب خطفنا العمائم من فوق رؤوس الناس أوقع أصحابي شيوخ كبار كنا صغار غير أني كنت أرثي لحال القوم الذين يطل من عيونهم السؤال شكوت ليلبغا صاحبي حالي، لكنه قال ما الذي تطلبه من الدنيا وأنت في أحسن حال، عندك ما تشتهي من جواري الروم والسودان هل ستحمل الدنيا على رأسك وتمشي تصرخ بها؟ للكون رب يدبره، في ليل آخر سألت يلبغا كيف مات ألف ألف انسان في الوباء الأعظم كثيرين، قال يلبغا ماتوا شهداء قلت وما الفرق أن يموت ابن آدم شهيداً أو غير شهيد، قال يلبغا، أنت تحيرني يا أمير، لم أطل معه. سكت، لكن قل لي يا شيخ جلال الدين وأنت رجل مطلع، كيف

تنام وكل يوم يقع من المظالم ما تنكسر منه الجبال؟ أطرقت. حرت في جوابه، نشفت عليه في الكلام، هل ستعدل الدنيا يا أمير طيبغا؟ رددت مخطوفة إلى زوجها فقلبت الكون وألّبت الأمراء وهيجت الخواطر وأحقدت النفوس فما بالك لو شرعت في فض المظالم؟ صاح طيبغا: والله لا أسمع بظلمة إلا وأبذل دمي في سبيل رفعها عن صاحبها والله لا أرد عن بابي صاحب سؤال. أقول الحقيقة، أنني قمت من أمامه وعندي رهبة زائدة وحيرة مما أسمعه لي، غير أن الأيام جاءت بالغريب.

* * *

ضرب الأمراء مشورة اتفقوا على طلوع طشتمر الجندار وسنقر الخازندار، إلى السلطان كجك بن الناصر محمد بن قلاوون، ركبوا خيلهم، النهار في أوله، قبلا الأرض بين يدي السلطان أخبر طشتمر والدمع يجري من عينيه الأحوال فسدت والأمور اضطربت ما عاد للسادة حرمة في الديار، احمر وجه كجك، كان صغير السن، لم يمض عليه منذ اعتلائه السلطنة غير أيام، ما الخبر؟ انخفض صوت طشتمر، نائب السلطنة يا مولاي أتى جرماً عظيماً وفعلا مهولا، منع هدم ربع قديم، كان لا بد من إزالته ليتمكن الأمير اقباي من بناء جامعه، ولما رافعه اقباي في ذلك، قال طيبغا أن البيت به سبعمائة نفس، أين يروحون؟ تصور يا مولاي، يحول دون قيام بيوت الله، الأدهى من ذلك ينصف العامة على اقباي، ضاعت هيبتنا بسببه، سهم السلطان ثم قال، شوفوا يا أمراء لا أبت حتى أشاور أهل

الرأي، صاحا ومن هم أهل الرأي، مولاي ألسنا رجالك؟ قال كجك بصوت خفيض أوصانا والدنا بطيبغا ثم أني لا أرى فيما أتاه ذنباً شنيعاً، يا أمراء. تذكروا أنه أول من رمى نفسه وغازى في آخر قلاع الكفار، قالا وهما جزعان: وبيت الله يا سلطان المسلمين يا حامي الدارين! قال كجك امنحه أرضاً خلاء من اقطاعي في الريدانية..

هيا إلى العشاء. قام، في هذه الأيام ازدادت قامته طولا، عظمت مهابته لم يسمع انسان في بر مصر يذكره مقروناً بقبحه، أو عدم ملاحته، قام إلى فناء الدار رجال الصوفية من أتباع البطل المجاهد سيدي أحمد البدوي واتباع القطب سيدي الدسوقي وسيدي الرفاعي، عليهم جميعاً أفضل السلام، احشرنا يا رب في ركابهم، وعزز بأمثالهم الإسلام، العشاء أباحه طيبغا لكل ذي حاجة. أقول أن مطبخ الدار يذبح كل يوم مائة رأس غنم وثلاثمائة طير، غير الفاكهة والنقل والمشموم، يفتح المطبخ في اليوم مرتين، ساعة الغذاء يدخل الفقراء والأيتام فإذا ما فرغ الواحد منهم قام فيجيء غيره في العصر ينفض الغذاء، غالباً لا يحضر طيبغا يكون مشغولا بالطواف في الحواري والأسواق يسمع أرباب الشكاوى والحاجات، يفض المنازعات، أما العشاء فيتصدر فيه المائدة، ينظر ضيوفه، يعرف واحداً أو اثنين، الكل وجوه غريبة، لكنهم ينظرون إليه، عيونهم ترميه، تغرقه بنظرات حب وحنان كأنهم يعرفونه من قبل ولادته، من سالف الزمان، كنت أواظب على المجيء أما الشيخ

سراج وغيره فاحتجبوا عنه وصاحبه يلبغا، بل سمعت من يقول، يلبغا يرمي صاحبه بالجنون سبحانك مغير النفوس والعقول إذ أن طيبغا عن ذلك أبعد ما يكون. مال عليّ وقال: دعوت طشتمر الجندار، وقفت اللقمة في حلقي.. كيف؟ لا يمر يوم إلا ويطلع القلعة، يحط فيك عند السلطان، سيظن الأمر مكيدة لمسكه، قال طيبغا: وغيره كثيرون ليس بيني وبينه ما يستحق هذا، طشتمر لم أجالسه في حياتي لا أذكر شكله، قلت لكنه يعرف كل كبيرة وصغيرة يا أمير، ضحك طيبغا ويضيف أكثر مما يعرف قل أنت ما الذي بيني وبينه؟ أطرقت: والله لا أعرف، كلامك يا طيبغا بسيط، لكنه معجز عن الجواب واعر، دعاء الجلوس في أذني، قلت ربما حب العامة لك أفسد عليهم حالهم، سألني كيف؟ قلت الناس كلها تلهج الآن بذكرك، يقولون لو كلهم على مثال طيبغا لصار الحال ولا في الخيال، تراجع وبدا حشماً مهيباً، عليه حرمة زائدة، لا أفعل إلا ما يرضي ربي، قلت وعندي تلجلج لسان، إذا كانوا يطلعون القلعة ويدسون عليك ويحطون في حقك الفارغ والملآن اطلع أنت مرة واحدة إلى كجك ولا تقل أكثر من الحقيقة، قال بإيجاز، لم يطلبني، كدت أواصل الكلام، سكت، لم أحر جواباً، الليل يوغل ناعماً وطشتمر لم يصل، ربما قال، يهينني طيبغا بدعوتي للاكل مع العوام، تزايد صوت الصوفية حتى بدا كغيم الحمام في وجه السماء ساعة الغروب، تربع طيبغا أغمض الجفنين بشجن يقطر من وجهه، اصغى إلى العجوز الذي يتلو الأوراد ضارباً عصاه الحديد بقطعة

صغيرة، يخرج أحلى الأنغام، الدنيا مركب بلا ربان، بحار بلا شطآن، المسافرون فيها عميان، نزلوا القيعان كشفوا وكان، سيدنا حبيب الندمان، آه يا حسين، عليك أفضل الصلاة والسلام. جرى الدمع من عيون الرجال أحسست بقلب طيبغا مضيعاً في أصعب حال، يا شهيد يا حبيبي، يا من افتدتك أم الغلام، ابنك مذبوح في حجرك وأنت لم ندمان. تطلعت حولي، الجدران عليها مهابة، ماء الورد في الأركان والحجارة لها عطر سلسبيل والله في الدماء رائحة البلسان، أود لو تعرف ما يقولون عنك يا أمير، كان ساهماً، يصغي بلحمه بعظمه، بجسه، بنفسه ولو رآه الغريب لظن أنه في أبعد واد. حرت فيما يفكر فيه، آه لو أنفذ إلى عقله فأعرف، أقول الحقيقة، الحيرة تأخذني أمامه، شق جوف الليل صوت زغاريد تلعلط من بعيد، ملت عليه، طشتمر لم يكلف نفسه ارسال من ينوب عنه. سكت، سكت، قلت إنها إهانة، نظر إلي، وكان الليل يدرك منا النخاع، سامحك الله يا ابن الحداد..

* * *

ركب قاضي الحنابلة فحلا قوياً وقصد بيت قاضي القضاة، ترجل ودخل القاعة الكبرى، حيث جلس قاضي الحنفية، وقاضي الشافعية، وقاضي المالكية، يتصدر المجلس الشيخ عبد البر قاضي القضاة، سلموا وتناقشوا في أمور شتى حتى أثار قاضي الحنابلة حقيقة ما جاؤوا من أجله، منذ شهور مضت قل نصيب كل منهم من القضايا والشكاوى، صار القاضي يجلس في شرفته ليأمر وينهي،

فلا يجد من يجيئه ويشكو إليه، سرقة أو خطف، أو حتى قتل، فيقوم الواحد آخر النهار كيسه خال من أي درهم رنان كان يجيء من رسوم المنازعات ولما استقصوا في الأمر، وجدوا شيئاً فظيعاً، الأمير طيبغا نائب السلطنة بدأ ينزل بنفسه إلى الحواري والطرقات يطلع الربوع ويدخل الخانات يسأل أرباب الحاجات وحدث عنه الكثيرون أنه أوتي من القدرة بحيث ينهي أشد الأمور تعقيداً في ثوان، حتى لهجت السنة الناس بالسب في حق القضاة، قال قاضي الحنفية، أنه سمع قائل يتهم قاضي المالكية بقبول البرطيل من الأموال فيغلب الظالم على المظلوم. صاح قاضي المالكية: أنه ترامى إليه من يتهم قاضي الحنفية بأن عينه حافت في امرأة شكت زوجها عنده، علت الأصوات، اشتد الزعيق، بان الغضب فوق الجباه؛ نزع قاضي الحنابلة جبته، لا أكون قاضياً بعد اليوم، ايش دخل طيبغا في حوائج الناس؟ رد عليه قاضي المالكية، لا بد أن غرضه عظيم، لم يسمع بمثل هذا في قديم الزمان، طيبغا يخفي غرضاً لئيماً هو تقويض دعائم الإسلام، قالوا في نفس واحد، نقيم عليه الحجة والبينة أنه جدف في حق مولانا رسول الأنام، نخبر السلطان على الأمر برجمه. أطرق قاضي القضاة سيكون أمراً مكشوفاً مفضوحاً، خاصة واللعين، لا يفوته فرض، يجمع حوله الدراويش، سألوا، ما العمل إذن والحال منقلب، نخبره أن ما يفعله هذا يرمي إلى كسب العامة والأوباش؛ عندئذ يسهل له الركوب على مولانا. هل شفتم أخبث منه، يدعي الزهد ويعلن رجاله في كل مكان، طيبغا لي يبقي على

مظلمة ويقتص للظالم من المظلوم، حتى إذا استطال أمره وعلا نجمه أظهر ما عنده، فأنهى الملك، بالذمة يا مشايخ، هل سمعتم في تاريخ دولة الترك بديار مصر عن أمير يأخذ على عاتقه فض المظالم، يفتح بيته لأولاد الحرام، يأكلون فيه ويشربون، قالوا والله ما سمعنا بمثل هذا، صاح شيخ الحنابلة، أنه لوطي فاسق، همس قاضي القضاة، تمسح وجهه ابتسامة لها رائحة العنبر، ليس وقته يا شيخ أحمد.. ليس وقته..

* * *

لم يكد يبدأ المؤذن في الآذان حتى علت ضجة وكبكبة من ناحية جامع الحسين. ويذكر عباد الله يومئذ ان الكل قالوا طيبغا مقبل طيبغا قادم من ناحية ام الغلام، سرى في الجمع كالماء في أرض الشراقي، طيبغا وصل، مالت الرؤوس اصغت الآذان كأن الانفس في الصدور موج علا وهاج يذكر اسمه وفي صحن الجامع كانت الشمس تسطع والضوء في الفراغ يلمع، دارت العيون ترمق الرجل الذي انتشر اسمه في سائر جهات مصر، حتى ان الكثير من الناس، توافدوا إليه يشكون حالهم، وكثيراً ما يجيئه فلاحون، يقول الواحد منهم، يا أمير أخذوا أرضي وشالوا عني حملي ومالي، ولا أجد القوت، فيرسل معه من رجاله ما يرد له أرضه، زعم الامراء ان طيبغا كان يهب كل من شرق وغرب، يستجيب للناس مهما قالوا له حتى اختلت الاحوال لكني أقول وأنا واثق ان طيبغا لم يفصل في أمر الا بعد تأكده وتحققه منه، ما علينا، اقول ان اليوم جمعة،

وطيبغا يرتدي الخشن من الثياب، حوله رجال، خليط فقراء وعامة جهلاء. ثلاثة أو أربعة من كبار الاغنياء – لزموه ولم يفارقوه، كان طول النهار يجول الطرقات، وشاب احدب له طلوع في ظهره وصدره يصيح امامه، والعجيب ان صوته قوي جهوري حتى تخاله يطلع من غير جسمه.. من له مظلمة فليعرضها على نائب السلطنة طيبغا، يتقدم الناس منه، منذ يومين مشى في شارع الصليبة، قام بنفسه بتسعير الاجبان والبيض، والخضار والسنبوسك، وقد أثار هذا المحتسب قال في رجاله وانا باعمل أيش؟ لكنه لم يجرؤ على النزول ورفع السعر من بعد خفضه، ولو فعل لأكله الناس، وهذا من مآثر طيبغا فقد كان المحتسب ظالماً غشوماً، يفرض الاسعار والمكوس على هواه لعنه الله وازال غمه عن أمة الاسلام، لم يكد القاضي عبد البر يسلم وتنتهي الصلاة حتى التف القوم حول طيبغا يبتسمون له يبادلهم الكلام كأنه واحد من العوام، والله كنت اعيب عليه هذا – قلت يا امير انت كبير المقام فتعامل معهم باحتشام، غير انه نتر فيَّ وقال: كلنا اولاد لحواء وابناء لآدم، ثم هؤلاء العوام عفيفو اللسان، ولو عرفهم الواحد منا لما قيل عنهم ما قيل، وتصادف في هذه اللحظة، ان خرج من الجامع ثلاثة امراء كانوا يصلون بجوار القاضي عبد البر أول الصفوف، أقول الحقيقة كانت لهم هيبة يلبس كل منهم الكلفتة والعباءة المزركشة كانوا في غاية الأبهة الأمير طشتمر الجندار – وسنسقر الخازندار، ويلبغا وكان قد انقلب على طيبغا وتباعد عنه تهامسوا وتساءل طشتمر بأنفة زائدة عن الزحام

وتصادف في اللحظة أن واحداً من شلاق الناس صاح: أنظروا الفرق بين الصالحين وبين ظلمة الاسلام، لفت القول أعناق الناس، سمعت من يقول أليس هذا (يقصد طيبغا) من جنس هؤلاء؟ قال آخر: أليس هذا (يقصد طيبغا) أعلى مقاماً من هؤلاء؟ اكفهرت وجوه الأمراء من الغضب، صار الناس يرمونهم بجهار النظرات، تراهنوا فيما بينهم عما سيفعله طيبغا؟ ثمة قائل أنه سيتقدم منهم ويسلم عليهم، وآخر يزعم أنه سيدنو منهم ويقطع هدومهم ويمرغهم في الوحل، بهدوء تكلم طيبغا مع الخلق، الأمراء منه على مسيرة أقدام، لم يرم إليهم حتى بسلام ولا بدا عليه أنه لحظهم ولا سمع الناس وهم يلوحون لهم، ويجهرون لهم بالكلام الفاحش المنكى.

* * *

.. (هات ما عندك) أطرق طشتمر، همس بصوت خفيض: الأمير طيبغا يا مولاي! زعق السلطان: قلت لكم طيبغا أوصانا أبونا عليه وله عندنا حرمة فما أريد سماع الكلام فيه، الليل ناعم، الدفء في العروق والأوصال، لين الحشايا يتسرب الى الدم والمفاصل، همس طشتمر، صوته يزداد انكساراً. أصغى الامراء كافة: أعرف يا مولاي. لكن نمى إلي حدث جلل.. زم سلطاننا شفتيه، قال طشتمر، دأب طيبغا مدعي الزهد والصلاح على السهر في بيته يقارع أولاد الحرام كؤوس الخمر وفي ليل أمس طار دماغه حتى أنه وقف في صحن داره وهو يصيح.. لا تؤاخذني مولاي.. خيم الصمت المهول على القاعة، ارتجف النبيذ في الدنان. راح السكر

من العقول. زعق السلطان: قل ما عندك! قال طشتمر والأسى العظيم في صوته: وقف يا مولاي ونادى بأعلى صوته هاتولي قطقط .. هاتولي قطقط .. أنا عايز قطقط. طق شرار الغضب من عيني السلطان كجك رمى الدورق في الارض ضرب جدار الرخام، طلب من طشتمر الكف عن الكلام.. ».

* * *

لما شاع أمر مخطوطة «ابن الحداد» وانتشرت بين العوام والفقهاء والمشايخ ومساتير الناس قام الشيخ الجليل والعالم اللوذعي الفضيل أحمد بن عبد المقصود الهندي بتأليف فصل في الرد على ابن الحداد، ولد فضيلته عام ١٠١٦ هـ ولا زال يدرس الفقه في الأزهر الشريف..

«إفحام أهل العناد بالرد على ابن الحداد»

أقول ولا أبتغي غير وجه الحقيقة، وانقاذ الصدق التائه في الليالي الغميقة، انه ما من موضوع طرقني، وأخذ من الكد والجهد بقدر موضوع ذاك اللعين الدجال الامير طيبغا آق سنقر من اينال فقد سمعت ما يتناقله عنه الجهال منذ ما يزيد عن مائتين من الأعوام ودفعني هذا إلى استجلاء الأمر فتبين لي أنهم يحكون عنه الكثير بلا أصل ولا سند، من ذلك قولهم ان السلطان كجك دس له السم البطيء حتى قتله. وسبب هذا علمه أن طيبغا صاح في أحد مجالسه هاتولي قطقط وقطقط هذه محظية السلطان السودانية ولا بد

أن هذا صحيح، فابن الحداد نفسه يذكر أول كلامه عشق طيبغا للجواري السودان. أقول واستغفرك ربي انه بعد اطلاعي على مصادر كثيرة ومؤلفات عديدة ان طيبغا لم يكن يهوى الجواري السودان - بل كان يهيم ويعشق الغلمان السودان، كان فاسقاً لعيناً لا يستقيم له حال، فكيف يتأتى له كل ما يقال من معجزات لا يصدقها عاقل ولا حتى في خيال. أقول هل عجز السلطان عن قتله أو شنقه حتى يدس له السم البطيء؟ يقول ابن الحداد ان كجك خاف هياج العامة، وانهم صاروا بعد موت طيبغا يلعنون كجك واذا ما سمعوا بركبه متجهاً الى مكان أقبلوا عليه كالجراد المنتشر، يسمعونه فاحش الألفاظ، ويتكوّن عليه في الكلام، حتى انهم في مرة كادوا يقتلونه مما أغضب السلطان وأمر بالقبض فيهم على ألف انسان وذبحهم تحت الليل، هكذا أفسد طيبغا الرعية على مولاها وسبحان من له الدوام، ثم كيف يقتله السلطان وهو أول من مشى في جنازته، ولا أجدني هنا غير ساخر من حكايات ابن الحداد التي صاغها عن أيام الوفاة، لخبث طيبغا أطال الله مدة احتضاره فبلغت أربعين يوماً كاملاً، وهذا لم يحدث لمؤمن حق في غابر أو حاضر الأزمان. يزعم ابن الحداد أن العامة غصت بهم الدار، وفد الفلاحون من الأرياف جماعات جماعات، ينذرون النذور للسيدة زينب، يتشفعون عند سيدي زين العابدين، وسافرت جماعات منهم الى سيدي المجاهد أحمد البدوي، يسألونه أن يشفي طيبغا، قال ابن الحداد، أوصى طيبغا بتوزيع اقطاعاته كلها على فقراء الفلاحين العوام بعد موته، حتى

بساتينه، نخيله، ما يقع في زمامة من طرح النهر، أقول كيف يطلب الفلاحون له الشفاء واطالة العمر، وهم ينتظرون موته ليأخذوا أرضه، أليس هذا من تخليط ابن الحاد؟ ثم يطلع علينا هذا الفقيه المجنون المأجور، برواية غريبة عن يوم الوفاة، اذ يقول في الليلة التي طال احتضاره فيها، ونفث الدم من فمه خيوطاً، قام واحد من دراويش الصوفية، صاح في الناس أنه أغفى هنيهة، اذ به يرى في المنام شيخاً مهيباً، جلبابه أبيض، ذقنه عظيمة، يشك في أنه الخضر عليه السلام، قال اذا كنتم تريدون لطيبغا الشفاء، اقرأوا صحيح البخاري ثلاثة آلاف مرة، وسورة يس أربعة آلاف مرة، بصوت عالٍ، قال الدرويش هذا، بسرعة تضامن العوام، أحضروا الفقهاء، بدأوا يقرأون في صحن الدار، يقول ابن الحداد، ان العوام رددوا وراء الفقهاء ما يقرأون، حتى ارتجت السماء رجاً مهولاً، ارتعشت المدينة من الفزع والرهبة، الطرقات أقفرت خيم عليها رجفة، حتى أن القلوب غاصت في الصدور، وكادت أن ترمي كل ذات حمل حملها. يزعم ابن الحداد أن كل واحد من الناس، تمنى لو أعطى طيبغا من حياته لكن قبل طلوع النهار، قبل انتهاء الفقراء من التلاوة، شهق طيبغا شهقة مريعة، انخلعت لها قلوب الخلق، طق في رأسه فرخ جمر، انحبس نفسه، وانكتم حسه، قيل أن السماء اسودت سواداً حالكاً، ساعتها ودوت الفرقعة من بعيد، حتى ظن الحضور أن الدنيا عمت عليها القارعة، وحانت النازلة، وصرخت النساء وقمن ينعين طيبغا بالطارات أقول ان طيبغا هذا لو كان صالحاً

فعلاً، لو كان عارفاً بالاصول، وراعياً للناس، لكان شفي ببركة قراءة صحيح البخاري، وتلاوة سورة يس المباركة، وبفضل طلوع سيدنا الخضر عليه السلام في المنام، يزعم ابن الحداد أن الحلوانية صنعوا تماثيل لطيبغا من السكر، علقوها في البيوت والخانات، ولا زال الجهال يشترونها، وأن العامة بعد موت طيبغا لو حاقت بواحد منهم مظلمة صاح والله اني ذاهب الى قبر طيبغا أشكو له الحال، ولو كان بعيداً لارسل له الرقاع، وهذا عين الجهل، مما يؤكد ما ذكرناه من الاحوال..

اتحاف الزمان

بحكاية جلي السلطان

يــــا من تعطي ولا تمنــــع

★ ★ ★

العبـد في دنياه بسعده، لا بأبيه،
ولا بجــــده، ولا بأصلــــه

★ ★ ★

في النـاس من تسعـده الأقـدار،
وفعلــــه جميعــــه أدبــار

★ ★ ★

ان رزقــــــــت آثرت،
وان منعــــت صــــبرت،

★ ★ ★

من شك في رزقــــــه،
شك في خالقــــــــه،

★ ★ ★

لو أن العقول تسوق رزقـــــاً ،
لكـان المـال عنـد ذوي العقول

* * *

سبحانـــك يـــا من تعطي ،
سبحانـــك يـــا من تأخـــذ ..

* * *

كان الغلام عبد الرازق يجلس أمام دكاني ، كان يتيم الأب ، بل ان واحداً من أهل الخط لا يعرف ولا يذكر له أباً ، أما أمه فامرأة ضائعة تسوس الخيل ، تتشاجر دائماً مع النساء بسبب وبدون سبب ، غير أن عبد الرازق كان صغير السن ، هادىء الطبع ، يحبه الزبائن لرقة خلقه ، وخفة يده ، ومهارته ، ولم أسمعه في حياتي يزعق لانسان ، وحببني هذا فيه فسمحت له بالجلوس أمام دكاني .. وإذا ما طفش المماليك في السوق كنت آويه في زمامي ، وقد توافدت عليه خدام القلعة ، والبيوت الكبيرة .. بل ان محمد المهتار يرسل في طلبه فيروح عنده يحلق له ، حتى جاء يوم علت شمسه ، وكثر حره ، وتعاظم غباره ، فكأنه غضب من الله رب العالمين ، على عباده الظالمين . بدا المهتار في أول الطريق ، راكباً بغلته ، فصار الخلق يتساءلون عن وجهته ، وحقيقة مقصده ، وعندما حط ركبه أمام دكاني .. انخلع قلبي ، وأرسل جيراني التجار يطلبون حامي الحسينية ليدفع عنا ما قد يقع علينا ، في هذا اليوم لم يحلق عبد الرازق إلا لرجل أو اثنين

مما جعل رأسه يغفو ويقع على صدره ، وعندما رأينا المهتار يشير اليه ، ترحمنا عليه ، ورحنا نخمن ما سيجري له ، أمره المهتار بلم عدته ، هنا انكرش نفس الغلام ولم يعد يدري يمينه من شماله ، فكأنه والعياذ بالله قد أدرك يوم القيامة من دوننا ، ولم نستطع أن نهون عليه ، ولم يحس بنا .. ولا بأهل حارته وهم يسعون وراءه يترحمون عليه ، ويأسفون على شبابه .. أما شيخ الحرفة فأخبرني في وقار .. أنه لو عاش لبقي له مستقبل عظيم .. ولصار مزيناً صاحب محل ، يجلس عنده الزبائن ، ويضع على صدورهم الفوط المنقوشة ، وقد جاءت أمه مسرعة ، حولها نسوة ينحن ويصرخن .. ولما زادت عن الحد ، خرجت وأمرتها بالنهي عن هذا ..

* * *

أما سبب ذلك ، فانه كان لمولانا الاشرف أبو النصر قانصوه الغوري أعز الله به الاسلام ، آمين ، لحية تحيط وجهه بمهابة يرتاع لها أصحاب القلوب الجامدة ، وقد قام على حلاقتها جلبي خاص عرف باسم علم الدين ، وكان الجلبي ذا هيبة وسطوة ، اذ ينزل من القلعة تمشي بين يديه الغلمان ، يركب بغلة عالية ، فوق كتفه فوطة حرير كشمير ، وهذا شرف لا يناله الانسان كأي شيء كان في ذاك الأوان ، غير أن الدنيا غرور لا تستقر على حال ، فقد حدث أن أشار الأمير شاربك الأعور إلى لحية مولانا ، قال انها لم تعد تبدو كما يجب ، فأنزعج مولانا انزعاجاً شنيعاً ، وصار يتأملها ، وبيده يتحسسها ، وبأصابعه يتخللها ، وسرعان ما ركبه الهم ، وتدفق إلى

رأسه خلف عينيه الدم، فض مجلسه، وقام الى غرفته وأرسل في طلب علم الدين، فأحضروه مشكوكاً في الحديد وصاح فيه، تفعل ما فعلت بلحيتي؟! وبعد أن بهدلوه آخر بهدلة أمر مولانا فقطعت رأسه.. غير أن الأيام توالت، ولحية السلطان تعظم ولا تجد من يهذبها، وعرضوا عليه عدة حلاقين، فلم يعجبه أحد، حتى دخل عليه محمد المهتار، وقال انه يعرف جلبي صغير، فقير، ناحية الحسينية.. يدعى عبد الرازق، لكنه يحلق مليحاً، فقال مولانا: لا نمانع.. أحضره لنا حتى نجربه..

* * *

انقض عليَّ الخدم، فغسلوني، وهرشوني باللوف العظيم، أبدوا تقززاً وقرفاً، غير أني لم أبال، فقد كنت مشغولاً بما جرى لي، وما قاله محمد المهتار ونحن في الطريق، السعد والجاه بين يديك، وطلوع نجمك أو انخسافه أمام عينيك، والمطلوب مني بسيط ويسير. وهو أن أتقن الحلاقة الأولى اتقاناً عظيماً، عندئذ من يدري، ربما أعطاني مائة دينار، أو.. أو.. مائتين.. طلعت الى قاعة صغيرة، رخامها يسطع، وستائرها تلمع، في الأركان الأربعة يقف حراس يحملقون الي، رحت، ثم جئت، ثم نظرت من الطاقة الضيقة، وجف قلبي، الفراغ فسيح لا أول له ولا آخر، وتحت كانت البيوت والمآذن، والغبار، والصيف عامل عمله، البلدة كلها ملقاة تحت، والغريب أنني شغلت نفسي، محاولاً أن أحدد في أي المواقع أسكن..؟ وكيف تبدو القلعة

كرسي السلطنة، عندما أنظر اليها من بين الحواري، سمعت صوتاً يناديني، التفت فاذا به محمد المهتار، قال تجهز.

* * *

غير أن رئيس ديوان الخلع والهدايا أخذته حسرة نفذت إلى مرارته في اليوم التالي، فقد جاءه الأمر الشريف بصرف كل ما يلزم عبد الرازق ليملأ وظيفة الجلبي، إلى جانب الخلع عليه بفروة سمور.. وفوطة حرير كشمير. وبالفعل.. فقد صرف له رئيس الديوان بغلاً عالياً، عليه كنبوش لونه أصفر، تتدلى منه شراريب، وأيضاً وسائد، وحشايا، وستائر، ودواة، وعشرون ذراع حرير شاهاني لا يوجد مثيله، وصار رئيس الديوان يقلب يديه من الدهشة، وكأن عبد الرازق أدرك ما يجول في خاطره فابتسم ابتسامة هادئة حيرت الرجل وأسكنته، وجعلته يناجي نفسه، فمن بعد الحلاقة للعوام والجعيدية والعبيد وأوباش الخلق، وامتلاء حجره بالقمل، يصير جلبياً للسلطان؟ وهكذا ينال ما لم ينله الرجل طوال عمره، وعندما أخبره عبد الرازق أنه مسافر مع السلطان إلى الفيوم.. تعاظمت حسرته، فبعد عشرين سنة من خدمة السلاطين لم ينله شرف كهذا، أما عبد الرازق فها هو يمضي مع الحاشية، وربما سئم مولانا فدعاه إلى مسامرته، وربما أعجبه فيصير من خاصته، عندئذ يلجأ اليه، ويقف عند بابه ليقضي له حاجة، ويكون في نظره انساناً محقراً ضائعاً لا قيمة له، من بعد أن كان لا يجرؤ لعبد الرازق الحلم في أن يحلق له، برقت عيناه وهو يرتدي الخلعة الفرو السمور،

وكاد الرجل أن يصيح غيظاً لما أبداه عبد الرازق من هدوء وكأنه تعود على هذا، غير أن رئيس الديوان هنأه في صوت خفيض.

* * *

عندما تمهل الركب أمام متجر العطار.. بدا ما مر من أيام بعيداً قاصياً، بل أنني – ساءلت نفسي. هل نوديت يوماً بالغلام عبد الرازق، وهل هذا الرصيف أكل حتتاً من لحمي طوال جلوسي فوقه، وهل حقاً مر بي يوم فرحت فيه فرحاً مهولاً لأن واحداً من خدام القلعة حلق عندي، وإذا جاءني تاجر صبغة، أو عطار، أو حمال، أكرر عليه بسبب أو من غير سبب أن خادماً من خدام القلعة حلق عندي قبله.. راح زمن من عمري في هذا.. وعندما تحرك الركب مرة ثانية، ارتفعت الأصوات بالدعاء، أهل الشارع لم يعرفوني، فعمامتي عالية.. وخلعة مولاي الحمراء تبرق على كتفي، ومن أين لهم أن يعرفوني، وفجأة ارتعبت، أفق يا عبد الرازق يا جلبي، ربما أنت في حلم، لكن استغفرك ربي، هل جرؤت يوماً على الحلم بمثل هذا، في السكة إلى الفيوم، كانت محفة السلطان تحط كثيراً، أجلس بجوار رجاله، الأمير الداودار الكبير، بيني وبينه مقدار ذراع واحدة، التزمت الصمت حتى لا أتفوه بلفظ قد يقع من قلوبهم موقعاً غير حسن، خاصة كلهم يعرفون أصلي، بل اني حافظت على سكناتي وحركاتي تمنيت لو أن لي عينين أرى بها نفسي من الخارج أرقب أفعالي وهل هي لائقة أم غير لائقة، بل أخرجت أنفاسي حذراً لئلا تزعجهم، تطلعت إلى أرباب المملكة وحملة

السيف، وفرسان الإسلام، أحاول التعرف عليهم، يقول مولانا مخاطباً هذا العجوز الأعور، يا شاربك، أعرف أن هذا هو من يلقي الرعب في قلوب العامة، ولو ذكر اسمه لسقطت الحامل اذ تسمعه. عندما يبدو موكبه ويسمع الناس أنه أزمع الركوب والنزول من القلعة ليشق من المدينة، يغلقون دكاكينهم، يلمون حاجاتهم، فهو قاس لا يرحم، لو رأى من يحتكر بيع الخيار الشنبر اذ وجدته رقيقاً في نفسه، يتكلم أمام سيدنا ومولانا بتواضع إن لم يكن مسكنة ومذلة، حرت في أمره، حتى كدت أقول أنه غير ما نسمع عنه، هل يتصور العامة ان شاربك او شربة الأعور كما يسمونه يركع لمخلوق، سخرت منهم ولعنتهم في نفسي، من يدري، ربما كان هذا الشيخ الرمال – ضارب الرمل – والجالس بجواري يقرأ فكري ويطلع على سري، عندئذ يعرف أنني ألعن السوقة لأنهم قالوا ما قالوه عن واحد من رجال مولانا. تعرفت أيضاً إلى الأمير ططق باي، وقاضي القضاة، وهو شيخ مهيب، ذقنه عظيمة يفوح منها المسك والعنبر، والله أهالي الناحية بلهاء مجانين، قاتل الله الضعة، يتقولون على الصالحين.. شهور كاملة ظلوا يرددون فيها أنه برطل على السلطان برطيلاً مهولاً يقدر بعشرات الألوف من الدنانير حتى يعينه قاضياً للقضاة، اعتدلت في جلستي، وكلما مضى الزمن رأيت فيهم أناساً لطافاً خفافاً يتحدثون مثلي.. بل يمزحون، يسخرون، ويتناغشون. أوغل الليل والهواء لا يهش ولا ينش، ولاحظت أن الأمير المقري نظر اليّ، مرة اثر مرة، خفضت نظري، ضحك، قال

لمولاي بلسان فصيح، الجلبي ساكت كالحجر. أليس عنده ما يبهج مولانا خاصة وأن الجلبية يعرفون من الحكايات مما لا أول له ولا آخر، أحاطتني العيون، الآذان تنتظر ما أقوله، ارتج علي، غير أني تداركت نفسي، قلت وعيناي تطرفان، الأدب واجب في حضرة الملوك، صاح أكثر من واحد، الله.. الله.. وفجأة مال سلطان المسلمين وحامي البيت، ولاحظت أن لحيته تبدو أكثر مهابة وحسناً وجمالاً عما رأيتها أول يوم، يا للعجب صوته كأي صوت، ونظراته، سكناته وحركاته، رحت أتملى وأسمع، طاف خاطر خبيث بذهني طردته كما تطرد ناموسة ثقيلة الظل، كأني سمعت الصوت، شيخ عجوز يبيع البسبوسة تحت باب الفتوح اذ يراه القوم مقبلاً.. يتزاحمون حوله، يقف متشامخاً في نفسه، متعاظماً في روحه، يقول بصوت عال غليظ كأنه يقطر سمنة.. بالدور.. بالدور.. ارتعبت من المقارنة، لعنت فكري، الأيام التي رأيت فيها بائع البسبوسة، غير أن ما قاله مولاي انزل برداً وسلاماً على قلبي، غمر صدري راحة، مليح.. مليح، على من تلقيت علمك يا جلبي؟ قلت بمنتهى الأدب.. على يد أشهر المزينين في مصر، المعلم الزيتوني رحمه الله وأحسن اليه، ضج المجلس بالضحك، انهمر العرق من رأسي وإبطي وعنقي وسائر جسمي، هل أخطأت، أذنبت، أي جرم ارتكبت؟ غير أن قاضي القضاة قال: هذا علمه يا مولانا.. وعندما تكلم انحنى متودداً متأدباً، وهذا بسبب ذكر اسمي.. يا عالم هل رجل في مثل ورعه يبرطل علي.. وعلى من.. على السلطان.. أحنيت

جسمي.. مليح.. مليح.. سألني عن أي الأماكن كنت أسكن.. فأجبته اجابة شافية، وسألني عن حال الناس في الخط، وما يقولونه ويمضغونه من كلام، وأشهر الحوادث التي كثر الحديث عنها..؟ فحكيت له عن المرأة التي ولدت طفلاً له رأسان، أبدى تعجبه، استعاذ بالله.. قال كيف لم نر ذلك..؟ وراح يستفسر عن هيئة المخلوق وصفاته ومنظره..؟ وأنا أصف وصفاً شافياً جامعاً وكأني رأيت الغلام بنفسي، استعاذ بالله، وقال الأمير شاربك أنه سمع بمثل هذا في الهند. الليل فوقنا يوغل في العتمة، تثاءب مولانا لأول مرة ورأيت أسنانه، اغمض عينيه.. رأيت جفنيه غليظتين منتفختين، فجأة فتحها وقال: أنت جلبي مليح.. ابتل قلبي بماء الورد، غرق صدري في روح النعناع، قمت واقفاً قبلت الأرض بين يديه، لم يمض الكثير حتى فض مولانا مجلسه، انصرف الجمع كله، أقبل علي بعض الأمراء يهنئونني، السلطان قال عني جلبي مليح أثنوا علي، كدت أطير كعود الياسمين وأتمايل طرباً غير أني أبديت خجلاً وتواضعاً زادهم ثناء علي، في خيمتي لم أنم، وبعد عودتنا اذا قابلت واحداً من الحاشية يوقفني ويبارك لي، قال السلطان أنت جلبي مليح، وأخبرني الشيخ أحمد ضارب الرمل، هذا القول له مثيل واحد في التاريخ، عندما امتدح المنصور قلاوون في سالف العصور طعام خادمه، وكثيراً ما يقابلني الأمير شاربك نفسه.. ألمح في عينيه رغبة في أن أحلق له، لكن من يجرؤ على طلب هذا من جلبي السلطان، لو أخبرت السلطان لأطاح برأسه، من يدري، ربما يريد

استمالتي اليه.. ثم يوزني لأقطع رقبة مولانا عندما يسلمها لي وتصبح تحت رحمة موسي، أرسلت في طلب أمي، فتحت ذراعيها وأرادت أن تضمني في أحضانها قلت يا ولية نحن الآن أصحاب .جاه، اهدئي.. هنا ستأكلين اللحم كل يوم، وتلبسين الحرير والديباج، بسطت كفيها، دعت لي، في المساء رحت أرقبها وهي تأكل اللحم، بعد أن صرفت الخدم، حارت بين المقلي والمحمر، وأصناف المشموم والفواخيت.. تذكرت أيامي الأولى في القلعة، كيف إذا جاءني الأكل لا أترك أثراً من فرخة أو قطعة من لحمة، الخبز لم أقربه مدة طويلة، ولما آلمتني بطني عالجني كبير الأطباء نفسه، مرتبي من اللحم كبير، لن يؤاخذني أحد، ساعات أقول أن الأكل يكفي حسين ومحمد عبد العزيز واسماعيل وسائر أصحابي في الحسينية، اذ أتذكرهم، ينبعث في نفسي ضيق، ما ولى من أيام يبدو قريباً، كأن السنين وجه له عينان كبيرتان تحملقان إلي في سخرية.. إنسان موجود في مكان لا أعلمه، يد ضخمة تمد لتلحقني وترميني من كل. هذا النعيم، اذا ما رأتني أمي تقول لي، أعطاك الله وأعطاك.. تمتع يا ولدي.. تمتع.. آن لي أن أستريح، مرة طلبت مني إكمال نصف ديني، بسطت يدي، من أين..؟ قالت إنها تعرف بنتاً مليحة وفقيرة ابنة سقاء ناحية سيدي البيومي، ما أتكسبه لم يكن يقيم أودي، ويسد رمقي، وإذا ما رأيت امرأة في الطريق الهث، ويسيل ريقي، لكني أدوس هذا كله، ولم أقرب امرأة قط..

وفي السوق تعلو نداءات الصبيان مشيرين إلى النساء فوق

المصاطب، أنظر يا سيد، ليس كل ما استدار جوزة، ولا كل ما استطال موزة، ولا كل ما أحمر لحمة، ويتحسس عبد الرازق صدور البنات الصغيرات.. يتأكد من نفوره واستدارته، كذا نعومة الجلد وتماسك الردف، وعن التاجر الرقيق التركي ان يسأله عن السر الذي يجعله يتخير الصغيرات دوماً، وكان قد استوثق من صحبة التاجر، وصار يسهل له الكثير من شئونه لدى الحكام، وقال عبد الرازق، انهن يذكرنه بسنين تمنى لو نالهن فيها، غير انه في المرة الأخيرة انتابه غضب، فقد تدافع حوله سفلة القوم، وصاروا يقدمون له الرقاع، والصحائف، ليقضي بعض حاجاتهم.. راحو يصيحون، يزعقون، وبأيديهم في وجهه يلوحون، مما حير التاجر التركي، وأعجزه فهم ذلك.

* * *

هدأتني أمي، قالت أنت في أعينهم صاحب ثروة وجاه، عضضت شفتي، ضممت يدي، إلى متى يلاحقوني، عبد الرازق كان ثم.. عبد الرازق أصله و... ما ذنبي..؟ لأني كنت واحداً من أهالي الخط، أليس الله يعطي من يشاء ويحجب رزقه عمن يشاء..؟ تمنيت لو أن الطبيب عنده دواء، أشربه فأنسى ما مر بي، لا أسمع إلا من يقول، عبد الرازق ولد جلبياً للسلطان، مقصه، وموسه، لم يلامسا غير شعر السلطان، قمت أروح وأجيء، أحك ظهري بيدي، اتخلل لحيتي بأصابعي، قالت أمي: لماذا لا تأخذ الحسينية في

حمايتك؟ نظرت اليها، قالت: ألم يكن علم الدين الجلبي السابق متحدثاً عنها، تعهد أنت أمام المحتسب عن الحسينية.. مقابل ما يريده من مال وتجمع من الخط ما تشاء، وأهله كلهم تجار موسرون، نظرت اليها مرة أخرى مضيقاً عيني، ستسدد ما عليك.. ثم تأخذ ما يفيض، وانت تعرف أهالي الخط كلهم، وهكذا تصبح معهم وجهاً لوجه، قلت: والله انها لفكرة.. لكن المحتسب لا يمنح الأحياء هكذا لا بد من برطيل، قالت معك ما يكفي أدفع له.. ثم يرجع لك كل ما أنفقت، تلفحت بعباءتي، تركت القلعة غارقة في صهج الظهيرة.. ووهج الصيف الذي له لون التراب.. سألني الساعي إلى أين؟ قلت إلى متولي حسبة القاهرة، قاضينا، وشيخنا، الزيني بركات بن موسى.

* * *

بدأ المنادي يقرع طبلته منذ تجاوزه باب الفتوح، يا أهالي الحسينية، صار علم الدين الرومي غريبا عن الخط، وليس متحدثا عنه، ولم يعد في حمايته، وعلى كل من لديه مظلمة أو شكوى، كل من عليه مال متأخر للسلطان وعلى المتخاصمين، وأرباب القضايا والمنازعات، أن يتوجهوا في كل حالهم ومآلهم الى حامي الخط، والمتحث عنه، وحاميه أمام المحتسب وكرسي السلطنة، المعلم عبد الرازق جلبي السلطان، وشيخ الجلبية في كافة اتحاد بر مصر..

* * *

أخبرني الركبدار أنه عندما شق في الحسينية اسمعه التجار

الكلام المنكي.. وصاروا يتقولون عليه، اذا كان سيدك نسي اصله وفصله فنحن لا ننسى.. وتوعدوه، هاشوا عليه بعصيهم.. زاطوا عليه في كلامهم،أخذتني رجفة، أكل قلبي الغيظ، ارتديت ثيابي، تحلقت بعمامتي، ركبت بغلتي، سألني الركبدار عن المقصد، الى الحسينية، أبدى جزعا وفزعا، لم أبال، صحت فيه فجري أمامي، تجاوزت باب النصر، طلعت على خياشيمي روائح الحي، انقبض قلبي.. كأن غيري غاش فيه، ليس أنا، مررت على دكان العطار، رميت السلام.. قام واقفا، اهتزت سبحته الطويلة.. سلم عليَّ، قدم إلي مقعده، تبسمت في وجهه، أستغفر اللهّ لم أنسك يا عم محمود، ارتاح وجه الرجل، هكذا ناس الحي، سخطوا علي، ذكروني بالكلام المنكي لأني زدت درهماً على مجعول الدكان، لكن بمجرد أن أواجههم، أكاشفهم، يخجلون ويتلعثمون، أما لو واجهني عالي الحس والصوت.. سأعرفه، آمر رجالي أن يذهبوا به الى الجب، أمام محل العطار راح الركبدار يصيح في السوق، حامي الخط والمتحدث عنه نزل بنفسه ليسمع ويرى حتى لا يدع الفرصة للمشوشين، وألا يكون لواحد من العباد مظلمة، جاؤوا من الحارات والخوخ والأزقة فأنا أعرف كيف تسري الاخبار هنا، التفت الى محمود العطار، الكلام لن يبدأ الا بعد زيارتي لسيدي البيومي، اشتقت اليه، حول الجامع رأيت كثيراً من الوجوه التي أعرفها، هززت رأسي متلطفاً، بدوا في دهشة عظيمة.. عليهم هيبة، منذ طلوعي القلعة لم يروني، سألتهم عما بهم، بعد صمت تعالت الاصوات فجأة، صاح محمود العطار يطلب

منهم الاحتشام، واحترام المقام، وأن يتكلم واحد عما يريد الكل أن يتحدثوا فيه فقالوا: أنت عارف يا معلم محمود. لقد زاد الفروة درهما وليس لنا طاقة على هذا.. صاحت عجوز، رجالي طلبوا منها دفع أجرة دكانها مقدما، هي لا تملك ما تدفعه، سيطردونها غدا، زعقت.. لن أرضى هذا يا عمة.. كم الايجار.. قالت نصف أشرفي، ضربت يدي في كيسي، أعطيتها نصف الاشرفي، ضجت المرأة بالدعاء، التفت فجأة وصحت.. الدرهم الزيادة لا بد منه لأن المطلوب مني للمحتسب كثير، لو ملكت المطلوب لشلت عنهم هذا كله، زعقت.. هل شوش عليكم أحد منذ أخذت الحسينية في حمايتي؟ أطرقوا مقدار درجة، قال شاب لا أذكره، المماليك خطفوا شابة من أمام محمد الخضري.. ولا يعرف لها خبر، التفت اليهم، تكاثر الجمع، تعاظم العدد، صحت عليهم، اعذروني ياناس، هؤلاء مماليك مولانا ماذا أقول لهم.. هل أنا عبد الرازق ابن الحسينية أقف قصادهم، لزموا الصمت، برغم هذا كله سأكلم الوالي، وأعرف من هم بالضبط وأين راحوا بها، ثم قلت: من عندكم خطفت امرأة واحد.. من الاحياء الاخرى هل تعرفون كم..؟ وكم من العمائم تنزع من فوق الرؤوس.. وكم من الغلمان المرديطاردون، كثير.. كثير.. كثير يا جماعة. أنتم في نعمة.. سكتوا هنيهة.. وقالوا إنهم يلاقون صعوبة عظمى في مقابلتي، عندئذ صحت، أحضروا إليَّ زين الدين الجزار، وكان شابا عفياً قوياً، حسه طالع دائما في الطريق، يرهبه الكثير، سلم عليَّ مترددا.. قلت: هل يعترض واحد على هذا؟

سكتوا.. أنت من اليوم مسئول أمامي وأمام هؤلاء والأهم من هذا كله أمام الله رب العالمين أن توصل الي كل الشكاوي والمظالم، أعذروني.. كما تعرفون أنا جلبي السلطان، ومولانا لا يخلو مجلسه مني، بدا على وجوههم الرهبة، زين الجزار مفتوح الفم، لا يصدق ما سمعه، اقترب مني الركبدار، همس. قلت: لا تلوموني يا أهلي بعد قليل يصحو مولانا ولابد من طلوعي القلعة، نزل الصمت، اندفع أمامي زين الدين يفسح الطريق منافسا الركبدار نفسه، امتطيت بغلتي فجأة انطلقت زغرودة من الطيقان، ابتسمت، تكاثف جميع النساء والحريم والغلمان أمام باب الفتوح، استدار زين الدين، زعق عليهم، أن يرجعوا، عاد يجري بجواري.. ضربت يدي في كيسي ونفحته عشرة دنانير ليشتري لنفسه ثيابا تليق برجالي، أمرته أن يطلع القلعة في الصباح لنتكلم، تركته مذهولا، سائر فتوات القاهرة يرهبونه، وغدا يطلع عندي وأرتب معه الأمور كلها، فلا أقلق في صحو أو منام.

* * *

وكان الامير كرتباي شديد الحنق على الامير شاربك الاعور، فالثاني أكثر قرباً منه لدى السلطان، وحصانه يلي حصان السلطان نفسه.. ورأى كرتباي أن يتخلص منه.. ويرديه موارد التهلكة، وبعد طول تفكير، رأى له أن يتكلم مع عبد الرازق الجلبي، فقد علا نجمه.. وسطع سعده، وقرب وعده، وصار السلطان يوكله في

كثير من الامور يحل فيها ويربط، حتى أن أرباب الحاجات ما قصدوا الا بابه.

* * *

وقد أصغيت اليه، العطر في الهواء.. حلو، النافورة ترمي ماءها الى أعلى، لا صوت من الطريق عندنا، وأعمدة الرخام السماقي تقف باردة تحمل السقف المزخرف الجميل بحشو الخشب، مما ليس له مثيل ولا في القلعة، عندما سألته عن هذا الشمعدان الرائع، بدا مبهوتا، فهو يحادثني في عظائم الأمور، وأنا أبدي اهتمامي بشيء حقير الشأن، ارتاع وخاف.. ربما ظن أنني سأبلغ شاربك عندئذ ينتكس وينتهي، رفعت نظري فوجدته شاخصا الي، عندئذ قلت: فجأة، ما الذي أنا له من هذا..؟ قال لك ما تطلب، أعطيك من الدنانير والجواري ما تشتهي، ضحك ضحكة خفيفة، فلم يلن وجهي، قلت في صوت خفيض، أكون متولياً لحسبة القاهرة، أصفر وجهه، نزلت على عينيه حيرة، قال هذا من السلطان، أشرت باصبعي، ترسل أعوانك فيضطرب الحال في السوق.. وتشيع عن الزيني ما يجعلك تطلع الى القلعة وتخبر السلطان أن حال المسلمين قد اضطرب وضاعت حقوقهم.. ولا مفر من عزل الزيني، يسألك من يحل مكانه.. تقول لا يوجد غير الجلبي.. فالناس تلهج بذكره وطيب سيرته، ولك أن تعلق جثة شاربك الاعور ثلاثة أيام كاملة على باب زويلة.

* * *

ونزل فوق الناس صمت حتى لتحس حركة الجنين في بطن أمه، تحيروا في أمور الزمان، كيف تلتف المشنقة حول عنق هذا الذي قارب ذا القرنين في جبروته وعنفوانه، ها هو يعلق رأسه كأي اعرابي مارق، أو لص سارق، بينما يطوف المنادون في أحياء القاهرة (المدينة) يصيحون على اللئيم الذي أعد ملعوبا خفياً ليخلع حامي الحرمين وسيد البحرين من فوق عرشه، لكن اللئيم شاربك أخذ قبل ان يأخذ.

* * *

وقال ان الناس تحبني وتثق بي، والوالي لا يجد غيري أتولى الحسبة، وأضمن أموال السلطنة، واستقر بأحوال الخلق، قمت فقبلت الارض بين يديه، سالت دموعي ورجوته اعفائي فما أثقل المسئولية وما أفظع المهمة على قلبي، ويكفيني القيام بواجبي بلا زيادة ولا نقصان، فما الذي يطمح فيه انسان أكثر من كونه جلبياً للسلطان، هنا ضرب مولاي يديه ببعضهما.. قال: عجيب.. والله عجيب.. أنت أول من أعرض عليه منصباً فيمتنع، وحولي يقتتلون ويتصارعون، ياجلبي.. أنت متولي الحسبة والمتحدث عنها أمامي، فانحنيت وقبلت الارض، لكن لي رجاء يا مولاي.. قال ما هو.. ألا تحرمني من كوني جلبيا.

* * *

ولهجت ألسنة الناس في المحلات والأسواق، ودعوا للمحتسب

الجديد، فقد نزل موكبه تدق أمامه الطبول، وتنفخ الزمور، وصار يقف بنفسه ويضع تسعيرة الاجبان.. والسنبوسك، والبيض، والخضراوات، وتحدث الناس في البيوت عن رقة طبعه، ولين خلقه.. وطول باله في الاستماع الى الشكاوى حتى عندما صاح الرعاع عليه في الحسنية، واتكوا عليه بالكلام الناشف، فقد ظل هادئاً، لا يرد على اهاناتهم، ولو شاء لقطع رقابهم.

* * *

اخبرني الأمير ابق أن المدينة لم تهدأ كما هي الآن، شكرته، اثنى علي ومضى، هكذا تحاشيت كل مشوش لئيم، من عنده مظلمة فليقدمها الى نوابي، لم أغلق ابوابي، ما يهمهم؟ ان ما يريدون قوله وصل الي، واذا بت في مظلمة فالأمل لا ينتهي من عند مائة، في المساء طلعت أعلى طباق بالقلعة، الزندة على أشدها، الجوبة وخم، السماء زرقاء. فالليل لم يوغل بعد، زعق الحراس بالتحية، رحت وجئت فوق السطح، أرنو الى القباب والمآذن، والغبار، كل هذا أنا متحدث عنه، قرضت طرف عباءتي، سمعت حس رجل ورائي، الامير كرتباي الوالي.. سلم عليَّ، وقال أن حسن مسيرتي وسياستي جعلتنا الكل راضيا عني، صحيح هناك بعض الموغرين يروحون اليه وينمون علي.. سكت.. ثم قال: لكم من نم لك نم عليك.. أومأت برأسي ولم أرد، لعب الفار في عبي، وراءه أمر ما، بعد سكوت دام درجة، قال: ان الجمع بين وظيفتي المحتسب والجلبي فيه ارهاق علي، الحسبة لها مشاغلها التي لا تعد ولا تحصى، ضيقت عيني،

أبطأت عليه في الحديث.. قال لو أعفاني السلطان من وظيفتي كجلبي، لكان هذا أحسن، فصحت فجأة، والله هذا ما كنت أفكر فيه، أبدى بشرا وتهللا، قال أطلب منه ذلك، قلت سأفعل لتوي، وبعد أن حلقت ذقن السلطان، قلت أن الأمير كرتباي طلب مني كذا وكذا وأنني أشك في مقاصده الجسام... ضاقت عينا مولاي، ارتخت جفونه، علامة الغضب العظيم، قال ماذا تظن ياجلبي.؟ قلت استعيذ بالله فلست تماماً، صاح عليَّ صيحة مهولة رجتني فانحنيت اقبل الأرض، قلت لا تؤاخذني مولاي ربما أرادوا ابعادي واحضار جلبي لا نعرفه ربما.. صاح السلطان.. لا تكمل ياجلبي.. امش ياجلبي، في المساء جاءني قاصد يخبرني ان كرتباي قطعوا رأسه في الصباح، وأن مولاي يطلبني بعد العشاء وهذا لأمر خطير، قلت سمعت وأطعت، عندما انصرف.. ذهبت الى أمي وقلت أتعرفين معنى هذا، نظرت الي مذهولة دخلت غرفتي.. ارخيت الستائر، انطلقت في فرحة، ضربت الجدار بيدي، رميت ثيابي على الوسائد وصرت أدور في الحجرة طالعا نازلا، لا أدري ما أفعله..

* * *

وقبل المغيب، نزل أمير مقدم ألف من القلعة، وعبر ميدان الرميلة في موكب له ضجة، واتجه الى بيت الأمير المقري حيث يقيم قصاد ملك البنادقة. ينتظرون من عشرة ايام، اللحظة التي تحين فيها مقابلة السلطان. وقد اركبهم الأمير، وعاد بهم في موكب عظيم، وكان القصاد خمسة يرتدون الثياب الزاهية، شعورهم طويلة

كالحريم ، وجوههم حمراء ، وفي أثناء هذا كان الامير يشبك البزدداري يتأمل السلطان برقة.. ويكثر من الدوران حوله ، ولحظ السلطان هذا ، فهو ذكي ، لا تفوته شاردة ولا واردة ، قال له ماذا بك يا بزدداري؟ قال لا تؤاخذني يا مولاي والله لا أجرؤ.. نتر مولانا فيه ، ارتجف الرجل في ثيابه ، وأشار الى ذقن مولانا ، قال انها هائشة ، غير مرتبة ، ليست مليحة ، ولو رآها القصاد الاجانب لصارت فضيحة ، تحسسها مولانا وتخللها بأصابعه.. عجيب.. عجيب.. عبد الرازق حلقها لي منذ ساعة.. أرخى الأمير يشبك عينيه.. قال يامولاي يد عبد الرازق تلمت عاد يفيق الى خدمتك.. صاح السلطان.. كفى.. كفى.. صار صوته هادرا فيه غضب لو سلط على مدينة لقلب أعاليها.. أسافلها... ارتعش الأمير يشبك ، وقبل الأرض.. صاح السلطان.. لن أقابل قصاد البنادقة.

★ ★ ★

وقائع حارة الطبلاوي

« مذكرة ايضاحية حول واقعة رقم ١٠٦ »

قسم الجمالية « القاهرة »

.. انه في يوم الاثنين، وفي التاسعة صباحاً، حضر إلى قسم الجمالية عدد خمس أشخاص، من سكان حارة الطبلاوي، ثلاثة ذكور، اثنان اناث وبيانهم كالآتي:

(١) حسن افندي متولي، موظف بادارة مكافحة الدودة، قسم الفقس، وزارة الزراعة.

(٢) فارس سعد (الشهير بأبي قورة) صاحب مقهى بالحسينية.

(٣) عويس يونس فران بناحية كفر الزغاري.

(٤) شمعة لطفي حكيمة بمستشفى الأزهار النموذجية.

(٥) محاسن حسن مدرسة ابتدائي، تعمل بمدرسة النحاسين الابتدائية.

وتولى حسن أفندي متولي الحديث نيابة عنهم، فأدلى بالبلاغ التالي...

«انه منذ ستة أيام قام دحروج النمرسي، اعتباراً من الساعة الواحدة صباحاً وحتى السابعة بدون انقطاع بمخاطبة أهالي الحارة

مستخدماً بوقاً مما يستعمله شرطة المرور في الميادين والطرقات العامة، وسبب ازعاجاً للسكان، علماً بأنه يبتدىء كلامه بعبارات بذيئة تسب أهالي الحارة كلهم، وتصفهم بأقبح الألفاظ وانتنها وتمس العرض والشرف، ونتج عن هذا اقلاق راحة المرضى، والأضرار بصحة الحاج أحمد العتر تاجر الورق الذي يعالج منذ عامين بسبب أعصابه، ولما زاد الحال، توجه اليه عدد من سكان الحارة وجيرانه القدامى، طلبوا منه الكف فردهم بعنف، طالبهم بفعل ما في وسعهم، وكرر مرات أنه حر، ولا يعنيه أحد ولا يوجد نص قانوني يعاقبه لأن الجهاز الذي يستخدمه لا يخضع للقيوذ المفروضة على استعمال مكبرات الصوت الكهربائية وذكر أرقام مواد ونصوص قانونية ثم حدثهم عن ماضيه الطويل اذ عمل جندياً في الخدمة السرية لقوات الأمن العام وأعلن (هناك شهود على ما قاله). انه خرب بيوتاً عامرة خلال خدمته، وأن أحد أقاربه يعمل الآن بمنصب هام للغاية، ويقوم بتمزيق كافة الشكاوي المرسلة ضده بعد اطلاعه عليها واحدة، واحدة، ثم أغلق الباب بعنف، وفي الواحدة صباحاً بدأ حديثه اليومي، قذف من جاؤوه واحداً واحداً بألفاظ بذيئة، وعبارات غريبة، عندئذ أطل بعض المسنين، صاحوا عليه راجين السكوت، واحترام الجوار فالنبي عليه الصلاة والسلام أوصى على سابع جار، وهنا زاد في بذاءته وسبهم بألفاظ تخدش رجولة كل منهم، وأطلت غويشة امرأته لأول مرة، وأعلنت وقوفها بالمرصاد لكل من تسول لها نفسها التهجم عليها، أو على زوجها وقالت أنها

صاحبت حريم الحارة والحي أربعين عاماً ، جمعت لزوجها دحروج معلومات تكفي لسد كل بيت بالجبس ، ثم ذكرت أمثلة ، وسبب وقوع مشاجرات بين أفراد عائلات لم يسمع لهم حس من قبل ، مما اضطر السكان بعد ستة أيام من العذاب المتصل اللجوء إلى الشرطة ، وأنهى حسن أفندي أقواله مطالباً الأمن العام بالتدخل لحماية الأهالي من المذكور وامرأته غويشة ، فالبيوت العامرة تكاد تخرب . . .

ومن ناحية أخرى أفاد مسعد أفندي القاطن أسفل المذكور ، أنه سمع مكبر الصوت أول ليلة وقيل فيه « آلو .. واحد .. إثنان .. ثلاثة الخ » وتلاوة البسملة عدة مرات ، وبعض آيات الذكر الحكيم ، عندئذ طلع إلى دحروج ظناً منه أن مصاباً وقع ، مما استدعى تجربة مكبر الصوت في هذه الساعة المتأخرة تمهيداً لتلاوة القرآن في اليوم التالي ، وعندما طرق الباب فتحت غويشة وقالت بدون مقدمات « أخيراً حانت الساعة ، ولم تدع فرصة لمسعد أفندي كي يستفسر عن أي ساعة تقصد » إنما أكملت « دحروج سيحقق ما انتوى .. قل لجيرانك ، وجيران جيرانك .. أخيراً .. حانت الساعة ثم أغلقت الباب بعنف ، وأقسم مسعد أفندي على صحة ما حدث بفتحه المصحف على سورة ياسين ، ووضعه على عينيه وأقسم يميناً ..

كما قدم المدعو فارس الشهير بأبي قورة ، شريطاً سجل عليه بعض من أقوال المذكور عن طريق المكبر ، « تم تفريغ **محتويات الشريط** » واستعان بجهاز تسجيل ماركة جروندج لاذاعة أغاني أم كلثوم على

زبائن المقهى ، وأفاد الجميع بأن الحارة لم تعرف القلاقل من قبل ، وتعد من أهدأ الحارات وأقلها في عدد المشاغبات والحوادث نادرة بها ، وسكانها مسالمون لا يميلون إلى ازعاج الغير ، ويحترمون القوانين والجوار الذي لا يقل بالنسبة لأحدثهم عن عشرين عاماً ، وأبناؤها التلاميذ متفوقون ، ومنذ عشر سنوات جاء ترتيب سيد ابن الحاج نصيف الثالث على شهادة الاعدادية (وطالبوا بإجراء بحوث وتحريات تثبت هذا) والآن لا يستطيع الطلبة استذكاراً بسبب أعمال المذكور دحروج وامرأته غويشة .. »

* * *

« ملحق ١ »

« محتويات شريط مسجل عليه بعض أقوال المذكور . ولم يتضح في هذه التسجيلات ، هل تمت ليلا أو نهاراً ، ولم يعرف تاريخ كل منها ، برجاء وضع ذلك في الاعتبار » .

(١) .. الا اذا اطلعتم بأنفسكم ، ورأيتم ما رأيت ، وهذا مستحيل ولم يتوفر لانسان قبلي ، أذكركم هنا بالمهن العديدة التي عملت بها ، أتقنت كلاً منها ، قضيت بها زمناً ، أذكركم بآخر أعمالي ، خدمتي خمسة عشر سنة في صفوف الخدمة السرية بالأمن العام ، تنقلي بين جميع المديريات والمراكز والقرى ، سفري الى بعض بلاد العالم في مهام خفية ، لن أتحدث عن تفاصيلها الآن ولكن سيحين الوقت ، ستذهلون ذهولاً عظيماً وتقولون كيف عاش بيننا ؟ أكثر من ثلاثين

عاماً تواجدت بينكم، هل شعرتم بي، هل عرفتم أمراً واحداً عني، هل سمعتموني أتحدث عن أحد بما لا يليق. طال صمتي والآن يمكنني قول ما في قلبي وعقلي، ستجدون كلامي شيقاً، البعض سيضيق به مؤقتاً، لكنهم في النهاية سيوجهون إليّ شكراً، لأنني قومت حياتهم وأظهرت ما تعرفونه ولكنكم تتجاهلونه، لكن العذر حق لكم يا أهالي الحارة المساكين، من لديه خبرة عمر مثلي، من أمسك بواطن الأمور، من أدرك الحقائق الخفية مثلي؟.

(٢).. يا معلم يونس، والله أرثي لك، سخرت مني ولن أرد عليك خذها مني نصيحة، أنا لا أحب الشجار، ولا الوقوع في مشاكل، طول عمري لم أقع في مشكلة، لم أقدم كمتهم إلى أي مسئول، لأنني من زمن طيب، زمن حلو، زمن عائق، رائق. غير زمانكم الموحل، الأغبر، لكنني سأقوم المعوج فيه، أدبر أموره أوجهه، يا معلم يونس، أنا لن أفضحك لكنني أنبهك إلى ما غاب عنك، طبعاً تعرف دكان المعلم ماهر المنجد في بيت القاضي، كلنا، كل أهالي حارة الفقر هذه.. كلنا نعرف يا معلم.. من يدخل بيتك بقرطاس الفاكهة كل أحد وأربعاء، أنت تخرج حوالي العاشرة ويستلم مكانك في الثانية عشر. العيون تحفظ منظره بالجلباب الأبيض، بخواتم الذهب والصندل البني، الحارة كلها تعرف ولا أحد يخبرك، لماذا، لأن، سكانها عندهم ما يكفيهم.. و..

(ضجة، تصفيق، أشياء تسقط، أصوات...)

(٣).. قبل أي كلام، انتبه يا حسن أفندي، يا راجل يا دودة، أنا لا يفوتني شيء أبداً. ما من نفس زائد لديكم إلا أحصيته، ما من همسة إلا وترجف طبلة أذني هنا، ألا تعلمون أن جدي كان عالماً كبيراً في الأزهر وأنه ترك لي مخطوطاً قديماً وعلمني كيف أستخدمه، فأعرف منه المستقبل الآتي ونهاية أعماركم، ألا تدركون أنني تلقيت أمراً بالحديث اليكم عن طريق هذا المخطوط، يمكنني أن أنبىء كلاً منكم بيوم يحين فيه أجله، ومن لديه هذه المقدرة لا يغيب عنه ذهابك إلى قسم الجمالية، تزعمك وفداً ضدي، شكوتني طلبت إبقاء اسمك سراً وهذا جبن، العجيب أنكم جميعاً جبناء، هذه سمة يتيمة توحد بينكم، إذا خفت مني أنا الفقير الضعيف الذي ناهز السبعين فلماذا لا تخشى الله خالقي وخالقك؟ بلغني ما قلته عني أمام مقهى البنان ما جرحت به امرأتي غويشة، تهديدك بأقاربك في وزارة التموين، ماذا تظنهم فاعلين؟. أعلم يا حسن.. يا أهالي حارة الطبلاوي الكرام، أن ابن خالة إمرأتي غويشة كونستابل ممتاز، ولا ينقطع عن زيارتنا ويرجوني كثيراً أن أرد زياراته لدرجة أنني خجلت منه واعلموا أن علبة سجائره تحت أمري – أسحب منها وقتما أشاء، ولكنني لا أستعين به قط على أعدائي، لأن أحوالي وأموري التي لن أبوح بها قط تحميني وتجعلني..

(٤).. ما رأيك يا غويشة؟؟

«امرأة» الرأي لك يا دحروج..

.. لن أرد على ما قاله الحاج سنوسي بائع العطر..

«امرأة» وصفك أوصافاً دنيئة يا دحروج..

.. لن أخرب بيته يا غويشة، لن أذكر مصنع العطور الصغير داخل شقته.. الحاج يتهرب من الضرائب يا غويشة ومن التأمينات الاجتماعية، ويستخدم أولاداً صغاراً..

«امرأة» يا خبر.. والنبي لا أعرف هذا كله، تصور أنه يلف على صفوف المصلين في الحسين.. يمسح أيديهم بالعطر ويبيع زجاجات صغيرة يقول عنها.. بركة من عند النبي، بركة من المدينة المنورة..

(٥).. يا أهالي الطبلاوي، يا مساكين، يا وجوه النحس، يا أشقياء عندما أطهر حياتكم من الكذب، عندما أزيح عنكم النفاق والاضطراب، وأنظم أموركم بطريقتي، سأنزل إليه، وأطلب منكم أن تحكموا عليه، وتلقنوه درساً..

(٦).. مثلا، امرأة عمي بدوي عساس البهائم في الأسواق تتحدث دائماً عن أقاربها في مصلحة السكك الحديدية، والدي، والثروات الطائلة دائماً تكلمكم عن أهل زوجها الأشقياء الذين نهبوا نصيبه في الميراث، عم بدوي يرفع عليهم القضية تلو القضية، لهذا فثمة ثروة ستأتيه يوماً، عندئذ تشتري الست نعيمة بيتاً في مصر الجديدة حوله حديقة، وتملأه أثاثاً فاخراً وتفارق الحارة القذرة، وأهلها الأنجاس، يا أهالي الطبلاوي البلهاء، لأنني أعرف كل كبيرة وصغيرة لأنني أعلم خباياكم، ما تظهرون وما تبطنون، لهذا سأقول لكم

الحقيقة، الست نعيمة التي تتعالى علينا، تحدثنا من طرف أنفها، لا أقارب لزوجها كما تقول، لها أخت صغيرة لا تدرون عنها شيئاً إسمها راجحة وتسكن بدروماً قديما في حارة سيدي معاز، زوجها بائع هريسة متجول، وحتى التزم الدقة، أقول أنه يبيع بطاطا فهو يمتلك فرناً فوق عربة يد، راجحة تساعده في كسب العيش، هل تدرون كيف؟ عندما تتشاجر امرأة مع جارتها تذهب إليها، تمنحها قروشاً قليلة، أو، قطعة لحم في رغيف وتستعين بها، أخت الست نعيمة لها محاضر عديدة في البوليس وعندما تقل المشاجرات تحترف الندب ولطم الخدود وراء الموتى يا أهالي الطبلاوي، يا أكذب خلق الله، في زماني البعيد الطيب، وأين أنتم من زماني؟ أمثالكم لا يسمح لهم بالعيش فيه. آه.. راح زماني الأخضر أيامه هنيات، في الليل نسمع الأغاني في المقاهي الدافئة، ونشرب الزنجبيل والقرفة، نصلي الفجر، في نفس هذه الحارة ينزل الرجال يصيحون على بعضهم، كل منهم ينبه الآخر، وفي الليل الرائق تسمع القباقيب، والماء والوضوء، ثم نخرج جماعة إلى الحسين، ونقابل النهار بوجوه سمحة ونفوس راضية، في زماني رأيت الأمان ذاته، لا انسان يخاف على ماله أو أولاده أو بيته، وكلما رأيت ما يجري بينكم يدركني والله رعب ولكنني ملازمكم حتى أقوم المعوج وأعيد السيرة الصافية هنا في حارة الطبلاوي وليلحقنا باقي الدنيا، لن أسمح بتكرار ما قامت به الست نعيمة عندما زارت جارتها أم سهير، وعندما دخلت لتعد شاياً، مدت يدها ودست ورقة نقدية قيمتها خمس وعشرون قرشاً في

صدرها، أنا الآن أدفع التهمة عن مجدي الابن الوحيد للست سهير والمتهم ظلماً، المهم.. أنني لن أطيل عليكم..

(٧) «أصوات مرتفعة» يا كلب،
يا... إذ... إذ...

(٨).. أرجوك يا مسعد أفندي ألا تتساءل ما وصلني وصل وانتهينا، وأنا واثق أنك وحدك تعلم مقدار النقود التي تخبئها، الفلوس الفضية القديمة، الفضة الحقيقية، فيه القرشان والخمسة قروش، والعشرة، أعرف عدد علب الصفيح المصفوفة في منزلك، وهوايتك ليلة الجمعة عندما تفرغ العلب من محتوياتها، وتنشىء أكواماً من النقود، تغير أشكالها كما تشاء، ثم تغسل النقود كلها في طشت نحاس كبير ثم تنام هانئاً، بسبب هذه القطع من العملة والنقود الأخرى التي لن أذكر مكانها لم تتزوج، ذاب عمرك في عملك الحقير، كاتب بالمحكمة الشرعية، لا يهمني مصادر دخلك من الأموال، لكن أذكرك بما فعلته الست نعيمة عندما سرقت مبلغاً تافهاً من أم سهير! تعال نبحث عن السبب معاً، ثم دعني أقل لك كيف نمنع وقوع هذا..

(٩).. يا ولد يا جابر، يا سعيد، زمانكما أجرب، لم تذوقا طعم النساء، لم تستمتعا بأي شيء، لو بيدي لحررت لكما جوازي سفر تهاجران بها إلى زمني الأول، فيه عرفنا الابكار الحقيقيات، رأينا الحياء على حقيقته، ذقنا المتعة، الأنوثة الريانة، كل ما تنالانه وقفة بلا جدوى أمام مدخل الحارة، أصغيا إليّ...

(١٠)وأثناء قيام السيدة لواحظ..

(١١).. أحمد العطار الشاب العفي الذي يركب الكبير قبل الصغير الفائح الرجولة، هيه.. لكنه زمن مائع، لا يعرف فيه الرجل من الأنثى، فالمقلوب معدول، والظاهر باطن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي..

* * *

بعض الوقائع..

.. كل ما قاله دحروج، كتبه عبد المقصود أفندي، لديه خبرة عمر في كتابة العرائض والشكاوى، يعرف المدخل المناسب لكل شخصية وذي منصب ما يجب قوله، وما لا يقال، ذكر ما قيل في حق امرأته وما يسيء إلى فوقية ابنته التي دخلت سن الزواج، ما سيلفت نظر المسؤولين بوزارة الداخلية بالذات هذا المطلب العجيب الذي وجهه المدعو دحروج إلى الأهالي، ضرورة تعديل أوقات نومهم بحيث يأوي الجميع إلى أسرتهم في تمام الرابعة والنصف بعد ظهر كل يوم، مع مراعاة ظروف الذين يعملون في نفس الفترة، ثم يوقظهم دحروج عن طريق مكبر الصوت ليتحدث إليهم، وينظم أمورهم، لم يكتف بهذا بل منح الأهالي مهلة قدرها ثلاثة أيام يتحولون فيها من نظام إلى نظام، يغيرون عاداتهم، عبد المقصود أفندي سطر خطاً ثقيلا بالمداد الأحمر تحت حديث لدحروج قال فيه «**منذ الآن حارة الطبلاوي لها ناموس غير النواميس.**»

الآن يضيق عبد المقصود أفندي، اضطر إلى ذكر أقوال دحروج حول امرأته وجيدة، سيفضح نفسه، لكن من الضروري جداً اثباتها. إذ أنها التهمة الوحيدة الواضحة التي يمكن أن يعاقب عليها طبقاً للقانون، يتململ عبد المقصود أفندي إذ يتخيل تهامس النساء فوق السلالم حول زوجته «المرأة جنت على كبر» تؤكد أخرى أنها تعرف ما قاله دحروج من قبل وسكتت طويلا حتى لا تنهش عرض جارة قديمة، ما يطمئن قليلا أن دحروج حذر كل إنسان، رجل أو امرأة، من تناول مضمون حديثه بالزيادة أو التشويش، لكن هل يكفي هذا لربط الألسنة، قام، تحسس الأرض بحثاً عن شبشبه، قضى اليوم كله في البيت ينسخ العريضة ويرقب تصرفات وجيدة.

نظراتك غريبة يا سي عبد المقصود..

استعاذ بالله، يحاول ألا يعلو صوته، كل حركاته ونظراته تفسر الآن، كل ما تقوله هي يتحلل في ذهنه إلى حيرة، إلى استفسارات، استجابتها أسرع مما يجب لمطلبه بمنعها من الطلوع إلى عشة الفراخ فوق السطح. حجرة الأسطى عبده بمواجهتها، سائق النقل العام بمفرده، ينام اليوم كله، ينزل في المغيب ليتسلم نوبة عمله، ينظر إلى امرأته، ينهض صدرها، لم تغب ملاحظته عن عين دحروج بل سخر قائلا «هل يوجهه الأسطى عبده كما يمسك مقود العربة. ما يضايقه اضطراره إلى ذكر هذا كله في العريضة. ربما سخر منه المسؤولون، لكنه أحكم الصياغة، عدد من الجيران علموا بنيته في ارسالها،

أبدوا بشراً وعلقوا آمالاً، يعرفون شهرته بل أن أحدهم قال بالنص «هذه العريضة ستذبح دحروج ذبحاً.. لكن عبد المقصود الآن يتنفس ببطء لم يتشاجر مع امرأته يوماً، حتى بعد انقطاعهما عن بعض في السرير، يذكر الآن حديثاً لحسن أفندي متولي عن شهوة بعض النساء إذ يبلغن الخامسة والأربعين، يطشن، ألقت ساعة الحائط ثلاث دقات مختصرة، بعد غد يحين انهاء المهلة المحددة ليبدأ جميع أهالي الحارة نومهم في الرابعة والنصف، سمع امرأته تتثاءب، نظر إليها وحنق في عينيه..

(٢)

باق عشر دقائق،

في الواحدة يعلو مكبرت الصوت، يزن قليلا، يلقي دحروج تحية المساء ويلعن الدنيا القائمة، ويرثي الزمان القديم، ويؤكد أنه سينتظر كل شيء، ثم يتلو ما وصل إليه من أخبار، يرد عليه البعض، وتلقى الحجارة على نوافذ شقته المقفلة، مهما حدث لن يفتح الحاج حمزة جزءاً من نافذته المطلة على الحارة. حتى الآن لم يتعرض له دحروج، مع مرور الأيام وقيام الهياج في الحارة، أيقن الحاج حمزة، أن اعتبارات عديدة تدخل في امتناع دحروج عنه، أهمها أنه قضى أكثر من ثلاثين عاماً ناظراً لمدرسة كتخدا الابتدائية، تلاميذه أصبحوا الآن رجالاً، يقابلونه في الطريق ضباطاً ومهندسين وكتبة في المصالح الحكومية، يصافحونه في المقهى إذ يجلس مرتدياً جلبابه الأبيض متأملا لاعبي الطاولة، أيضاً ربما

يعلم عنه دحروج موقفه عندما عرضوا عليه منذ عشر سنوات الانتقال إلى مدرسة الروم الابتدائية مع ترقيته ناظراً، لكنه رفض، آثر البقاء في الحي الذي ارتبط به، ومرت أربع سنوات كاملة قبل أن يصبح ناظراً لمدرسته، يعرف أن دحروج لم ينجب ويرثي له، بالتأكيد يعاني ضيقاً وآلاماً، لو أنجب طفلا وألحقه بالمدرسة لأولاه عناية خاصة، الآن لا يضيق بازعاج دحروج، ليفعل ما يشاء، ليسب أهالي الحارة، ليعيد تنظيم الأمور فيها كيفما يشاء، فعلا كثير من الأوضاع يجب تقويمها، ليحدد للسكان نوعيات الطعام التي يجب أن يأكلوها يومياً، المهم.. ألا يذكر شيئاً عن بناته، دحروج عالم بكل شيء، مطلع قطعاً على أفكاره الودية، إنه أول من ينفذ تعليماته، عندما طلب أن ينام الجميع في الرابعة والنصف، أسرع الحاج حمزة بتطبيق هذا على بيته قبل انتهاء المهلة بيوم، بناته أبدين ضيقاً وامتعاضاً، أجبرهن على طاعته، لا بد أن يتأكد لدى دحروج أن الحاج رجل طيب، مربي فاضل كما تتحدث عنه كلمات الطلبة في المدرسة، كما وصفه المدير في العدد السنوي من مجلة المنطقة التعليمية، في كل ليلة يصغي إليه، إذ يسكت دحروج لحظات يمسك أنفاسه خشية أن توجه الفقرة التالية ضده، تتعاقب عليه الانفعالات. ما يرعبه أن يتحدث دحروج عن البنات، بالأمس أبدت سعاد ابنته ضيقاً، تعودت عمرها كله استذكار دروسها من الخامسة حتى الحادية عشرة ثم تنام، كيف تغير نظامها وامتحان التوجيهية مقترب، أحاطها بذراعيه، دفعها أمامه، كاد يكم فاها،

قال.. لا تزعقي، عمك دحروج لم يتعرض لنا، عمك حر صباح اليوم جاء بيومي السائع بمصلحة السكة الحديدية، قدم إليه عريضة قال أن نصف سكان الحارة وقع عليها والباقي سيوقع، سوف تحدث العريضة صدى كبيراً لدى المسؤولين، خاصة بعد طلبات دحروج الغريبة من الأهالي وإصراره على نومهم مبكرين وتوحيد طعامهم اليومي، على أن يتولى الطهي بيتان أو ثلاثة يومياً لكل الأسر مقابل مبلغ يتفاوت طبقاً لقدرة هذا وذاك يدفع أول كل شهر إلى حسن أفندي متولي شخصياً قال بيومي أن المسؤولين سوف يتدخلون فوراً، لأن العريضة سترسل بالتلغراف والمطلوب فقط قرشان والتوقيع، الحاج حمزة لم يدع بيومي يكمل، تفجر هدوء عمره كله.

« إسمع.. »

أسرع يطل من النافذة، زعق مخاطباً أهالي الحارة، بيومي وغيره مع أن بيومي يقف في الصالة، إنه لن يوقع على أي عريضة ضد جاره القديم دحروج النمرسي، (وهنا علا صوته تماماً، وهذا ما لم يعهده أهالي الحارة). إنه غير منزعج أبداً، وما يفعله دحروج من حقه تماماً، سكت لحظة ثم زعق أنه لا يمت بصلة إلى حارة الطبلاوي ولا يعتبر من سكانها لأن مدخل بيته وشرفته الرئيسية تطل على شارع قصر الشوق، أما النافذة التي تصله بالحارة فسيرسل في طلب نجار ليسدها في الحال، برغم هذا فيصغي إلى دحروج وينفذ كل ما يأمر به، خاصة وأن صحته وصحة الأولاد تقدمت بعد نومهم مبكرين. إنه ينصح جيرانه نصيحة لوجه الله، الحذار، الحذار من

أي عمل خفي ضد دحروج، لأن الرجل مكشوف عنه الحجاب. وإلا.. كيف تأتي له معرفة نص عريضة عبد المقصود أفندي كاملاً؟؟

(٣)

فترة تلي آذان الفجر، يتحلل على مهل سواد الليل، تولد ملامح البيوت تتخلق ألوانها من جديد. ومن نبع خفي يظل بخار أبيض منظور عالق بالفراغ، بلاط الحارة يلمع تحت ضوء الفانوس الغازي الوحيد الذي يبدو يتيماً شاحباً في مواجهة ضوء نهاري وليد، ومن نافذة متسعة في الطابق الأول بالمنزل الرابع تطل الست روحية مع أولادها السبعة صامتون يصغون إلى ما يقوله دحروج، أيضاً عائلة أم حسني حتى الجدة العجوز، منذ فترة وجيزة سكت، بدت نافذة بيته مغلقة، بنية اللون، لم يرها أحد تفتح أبداً، يعرفون أنه لن يكف تماماً إلا في تمام السابعة، لهذا ينتظرون الآن استئناف الحديث في أي لحظة، فجأة انبثق صراخ رفيع، حاد مسنون، عويل مستأنف يبذله الجسم والنفس معاً، ممدود مقبض فيه خلاصة العجز الإنساني في مواجهة أمر قاهر، بدأ فردياً ثم أصبح جماعياً غليظاً عبوساً. نظر الساهرون من السكان إلى منزل صالح أفندي، فتحت نوافذه بصعوبة خرجت كلمة من بين العويل..

يا خويا..

استعاذ أهالي حارة الطبلاوي بالله، كلهم بدون استثناء، بدا خوف غامض على وجوه السيدات، ينظرن إلى نافذة دحروج المغلقة

وكأنها باب للفرج أوصد، أول أمس صاحت امرأة صالح أفندي في تمام الثانية صباحاً مخاطبة دحروج، تحدثه.. إذا أحاط بكل ما يجري بالحارة، طالما أنه أوتي معرفة ما سيحدث، وبعض الأهالي يقولون برفع الحجاب عنه، فليقل لها إذن هل سيشفى ابنها تيسير؟ وحيدها المريض منذ عام، الذي حارت به ولفت على جميع المستشفيات، يذكر أهالي الحارة الآن صمت دحروج، ثم قوله المقتضب «يا أم تيسير، لو طلعت شمس يوم الثلاثاء على ابنك ووجدته حياً سيعيش مائة سنة» ثم استأنف كلامه العادي، الآن يبدو الثلاثاء جهماً لا يطاق وتذوب الأحشاء في العويل القاسي، والشمس على وشك الشروق.

(٤)

حتى مغيب اليوم التالي على ما أذاعه دحروج. لم تدر حسنية ماذا تفعل هل تذهب مع أولادها الأربعة إلى ورشة الحاج بندق صانع التماثيل الخشبية، تولول، تجمع عليه الخلق، تحكي كيف تزوج فتاة صغيرة، ويبالغ في تدليلها ولا يعطي بيته مصروفاً كافياً، لم تقصر في حقه، بداية حياتها هنية طرية، في سنين زواجها الأولى رأت امرأة شعثاء جاحظة، تدفع سرباً من الأطفال وتحمل رضيعاً، تقف أمام دكان موبيلياتي، تطالبه بالمصروف، تركها منذ أسابيع، تذكر الدم المتدفق إلى وجه المرأة، عروق رقبتها النافرة الزرقاء، يومها قالت «بندق لن يفعل هذا بي أبداً» قبل عودته تطمئن إلى نظافة البيت، تمشط شعرها، تتهيأ لاستقباله، تروي بدنها بالأطايب

حتى تبدو ريانة يستريح إليها من عناء يوم طويل، الآن لا تجرؤ على الذهاب إلى الورشة، ربما يبهدلها، ستجري في أروقة المحاكم، تتوه في طرقاتها في نظرات الكتبة الشبان والعجائز، تبلى في الانتظار، لا تقدر على العودة إلى البلدة، شقيقها لن يحتملها مع أولادها، لن تطيق نظرات الحريم، يقلن فيما بينهن «لم تنفع في مصر» لا تدري ما تفعله الآن، هل ترمي نفسها من الطابق الرابع؟ تتخلص من ضيقها، تنهي أوجاعها ومصائبها، إذا لم تمت ربما قضت بقية عمرها عاجزة لا تصلح لعجين أو خبيز أو غسيل، من يدري ربما يرق قلبه إذ يراها مصابة، يحن ويرجع إلى أولاده.. جاراتها نصحتها بالمضي إلى دحروج. تقف تحت نافذته، ترفع صوتها راجية أن يدلها أي السكك تسلك؟.

(٥)

.. أمام جامع سيدي مرزوق، يقف حسن أفندي متولي، يقرأ الفاتحة. فيمابعد لم يدر الحاج بيومي هل تم اللقاء مصادفة أم تعمد مقابلته؟ عيناه حمراوتان، لم ينم ليل الحارة، لم يتعود على النوم في تمام الرابعة والنصف لا يمكنه الآن إلا الاضجاع أثناء حديث دحروج، قال حسن أفندي أنه لا فائدة من أي عمل تم حتى الآن ضد دحروج، حتى عريضة عبد المقصود أفندي المشهور بصياغة العرائض وحبكها لم تأت بأي نتيجة، بل أن أحد صورها المرسلة إلى جهة رسمية أعيدت إليه لأن البريد لم يستدل على عنوان إحدى

الوزارات، ثم ما هي حال عبد المقصود الآن؟ بيته خرب بعد عمار هجرته الست وجيدة بعد أن أغرقها بالشك، قال حسن أفندي أن ما يقوم به دحروج لا يوافق عليه، وهو لم يقصر في سبيل ايقافه عند حده، وأهالي الطبلاوي يعرفون كلهم، الكبير منهم والصغير أنه أول من ذهب إلى القسم على رأس وفد من الحارة وقدم بلاغاً وقع عليه وأملى بصوت عالي رقم بطاقته العائلية، وحتى الآن لم يحدث أي استدعاء لدحروج، فلم يره أحد يخرج من بيته، لم يظهر أبداً لدرجة أن بعض الشبان المتهورين الذين لا يدرون آخر العواقب، قالوا فيما بينهم لا وجود لرجل اسمه دحروج، وإلا فأين هو؟ أما الصوت الذي يخاطب الأهالي فربما بعض الأشقياء يريدون فرض أمور خطيرة على الحارة، وما الصوت إلا تسجيل يضعونه بين الحين والحين، وربما تتعرض الحارة لظاهرة خفية، وأمور غير مرئية وعندما ذهب أحدهم إلى بيت دحروج، تناقش مع مسعد أفندي

أكد له وجود دحروج وامرأته غويشة وهذا أمر لا ينكره إلا أجنبي عن الحارة أو مجنون، لأنه يعيش بينهم طوال عمره، صحيح لم يسمع له حس ولكنه لم يحتجب إلا بعد بدئه الحديث مع الأهالي، وقال مسعد أفندي أنه أدرى بوجوده لأنه يسكن تحته ويسمع صوت تحركه بالليل وبالنهار، وهنا ارتفع صوت حسن أفندي، هل تعلم ماذا جرى يوم أمس لشكري أحد الشبان، قال بيومي أنه لا يعرف بسبب تغيبه في السفر، قال حسن أفندي، في المساء قال دحروج كل ما تناقشوا فيه، وحذر شكري مثير الشكوك، ثم أنذره بعدم الذهاب إلى

امتحان الكلية، ولو خالف فسيذيع الأدلة الدامغة بانتمائه إلى أحد التنظيمات السرية التي تعمل ضد الحكومة، قال حسن أفندي أيضاً، انه رجل هادىء بطبعه لا يحب الازعاج ولا يطيقه، قال حسن أفندي انه يؤمن بعدم فائدة النطح في الحجر، وأن النقش على الماء عبث، والنفخ في قربة مقطوعة مضيعة للوقت، لهذا كله، ولأسباب عديدة، بعضها خفي وبعضها معلن، يرجو من الحاج بيومي سحب توقيعه من... قاطعه الحاج قائلا أنه أرسل العريضة فعلا، صحيح أن السكان لم يوقعوا فعلا كلهم لكنه أرسلها حتى يحرك المسؤولين، استفسر حسن أفندي عن الجهات التي أرسلت إليها العريضة وكتبها في ورقة، أبدى غماً. قال أنه سيرسل إلى كل منها تلغرافاً يعلن تراجعه، سيكلفه هذا كثيراً لكنه سيضحي بماله إيثاراً للهدوء، قال أن الناس يحبون لبعضهم الأذى. ولا يصح للحاج ولا لغيره إرسال العريضة بدون أخذ آراء من وقعوا عليها، احتد الحاج بيومي قائلا، مجرد التوقيع يعني الموافقة على إرسالها، زعق حسني أفندي، أبداً، أبداً، لا يوجد ولن يخلق من يعلمه الأصول، هو موظف الحكومة الذي قضى عمره بإدارة مكافحة الدودة، قسم الفقس. علا صوت الحاج بيومي موضحاً، أنه هو أيضاً موظف حكومة، أليس السائق بالسكة الحديدية موظفاً رسمياً يقبض مرتباً شهرياً ويتقاضى علاوات أكثر من التي يتقاضاها موظف في الدرجة السابعة، مط حسن أفندي شفتيه احتقاراً، توقف بعض المارة، تجمعوا حولها.

* * *

مشاهدات الرقيب صالح عبده، بالأمن الخاص في حارة الطبلاوي عندما جاء يستطلع الأحوال..

«يا حاج بيومي.. يا حاج بيومي..»

كأن البعض يجيب بتصفيق مماثل، الضوء عال، والنهار شاحب مرتحل هدوء ثقيل مراق بسخاء، منذ دخوله الحارة لم ير طفلاً، أو امرأة، عادة يتصايح الصبية حوله، يمشون خلفه يتوقعون منه حركة عنيفة مفاجئة فيحتفظون بمسافة معينة، ربما أتقن الأهالي هنا تربية أولادهم، حرموا عليهم اللعب في الحارة، توقف في الطابق الأول أمام باب جهم المنظر، خبط مرات، لم يجب أحد، دق الباب بعنف، حركة صغيرة مترددة، صوت شبشب، عاد يطرق الباب: يأتي همس، اثنان يتبادلان الحديث، لم يدر أهما رجلان أم امرأتان أم رجل وامرأة؟ صفق مرتين، علا صوت.

ما هذا الازعاج ألا نستطيع النوم في راحة؟

الحاج بيومي موجود؟

فوق.. فوق يا عالم ارحمونا ودعونا ننام..

طلع الحاج ملتفاً في عباءة قديمة من وبر الجمل ورثها عن والده، عيناه ضيقتان، فيهما آثار نوم، الشرطي صالح لا تزعجه مثل هذه المقابلات. أمثال الحاج يتباهون قائلين.. طول عمرنا لم نمض إلى قسم بوليس، ولم نقف أمام نيابة.

«أنت قدمت»

لم يكمل الشرطي صالح حديثه، قاطعه الحاج، صوته رفيع حاد كصفير قاطرة متحشرج.

« أنا لم أقدم ولا أشكو..

« ولكن...

« تنازلت يا أخي تنازلت عن الشكوى والعريضة، المصارين تتصارع في البطن، ما بالك ونحن جيران؟

ينظر الشرطي صالح دهشاً، قال الحاج أنه تنازل عن كل شيء وأنه على استعداد للذهاب إلى السجن بسبب ازعاج السلطات، لكن أن يسأل سؤالاً واحداً حول جاره العزيز لا.. ثم يجب على الشرطة اختيار الوقت المناسب للحضور إلى الناس، أما اقلاقهم في أحلى ساعات النوم.. نزل الشرطي صالح إلى الحارة. نوافذ البيوت مغلقة، تلفت حوله حائراً، دخل بيت دحروج، في منتصف الليل قبل بدء الحديث اليومي، قيل أن دحروج خرج وتحدث للشرطي فعلا، وأن ضحكاته سمعت واضحة لمن لم يدركه النوم في المواعيد المحددة، أيضاً استفسر دحروج عن بعض الأشياء، أبدى اهتمامه تجاه أسماء معينة، أبدى الشرطي دهشة قال دحروج أنه يعرف هؤلاء كلهم وكبيرهم رهن اشارته، ثم أوصاه بإتمام اجراءاته على أتم وجه، في هذه اللحظة دخل الحارة المعلم يونس الفران، رآه الشرطي صالح يرفع يده بالتحية إذ يمر تحت بيت دحروج، النوافذ مغلقة لكنهم يثقون أنه يراهم، يعرف من ألقى السلام ومن لم يلقه،

يعرف من جرؤ على تناول الطعام بمفرده خارج الحارة أو في بيته، الحاج حمزة يفتح النافذة يومياً قبل نومه، ويزعق بالسلام حتى بعد تعرض دحروج بالكلام لابنته الصغرى، وذكر بعض تفاصيل علاقاتها بمدرس الكيمياء، أم تيسير منذ رحيل ابنها، بمجرد أن يبدأ دحروج حديثه تنزل مهرولة بقميص النوم ترفع ذراعها زاعقة تحت النافذة « الله أكبر.. الله أكبر » عليه وعلى شبابه، دحروج بركة، أي مخلوق يجرؤ على شكواه ستناله، مصائب ومحن، وتغرقه رزايا، حتى الحاج أحمد تاجر الورق، المريض بأعصابه، قال لكل من زاره أخيراً أن صوت دحروج الليلي لا يزعجه بل ينبؤه أن شفاءه سيتم قريباً، وأنه قبل ما كلفه به دحروج من قيامه بدور الوسيط بين المتخاصمين في الحارة بعد فترة أيقن رأفة دحروج به ومراعاته لظروف مرضه، لم يعد يتخاصم أحد، ومن لديه وجيعة يمضي بها طارحاً إياها أمام دحروج، أسند إليه أخف المهام، وفي الواحدة صباحاً يقف بالشرفة ويضحك ويهز رأسه موافقاً، يصيح مستحسناً ما يقال، عند باب الحارة توقف الشرطي صالح عبده لم ير أحد، لا ينوي توجيه أي سؤال، رأى طفلاً صغيراً يتجه إلى مدخل الحارة لمعت عيناه لحظة واتجه إلى الطفل انحنى حتى قارب رأسه..

اسمك يا شاطر؟

سعد..

أنت من هنا.. من حارة الطبلاوي..

أومأ الطفل، بدا قلقاً، الأطفال لا يكذبون، كواجب أخير سيحاول أن يتعرف منه..

- يعني ألم تسمع ميكروفوناً أبداً بعد..

هز الطفل رأسه، ابتسامة مرتعشة قلقة..

خيالات يا شاويش.. أبدا.. أبدا..

هل تنام يا بني..

رفع الصغير عينين شاخبتين، بدا متعجباً، أي سؤال هذا؟ ما الذي يقوله هذا الشاويش؟ انفلت يجري مسرعاً.

* * *

«تأشيرة على المذكرة الإيضاحية رقم ١٠٦م وعلى تقرير الشرطي صالح عبده، وعلى عرائض مقدمة من بعض أهالي حارة الطبلاوي، وشكاوى من مجهولين، ونصوص مكالمات تليفونية، لمواطنين رفضوا ذكر أسمائهم.

«يحفظ...»